بلاغة القرآن الكريم

دراسة لأثر التنكير البلاغي في سياق القرآن

الدكتور

محمد السيد موسى

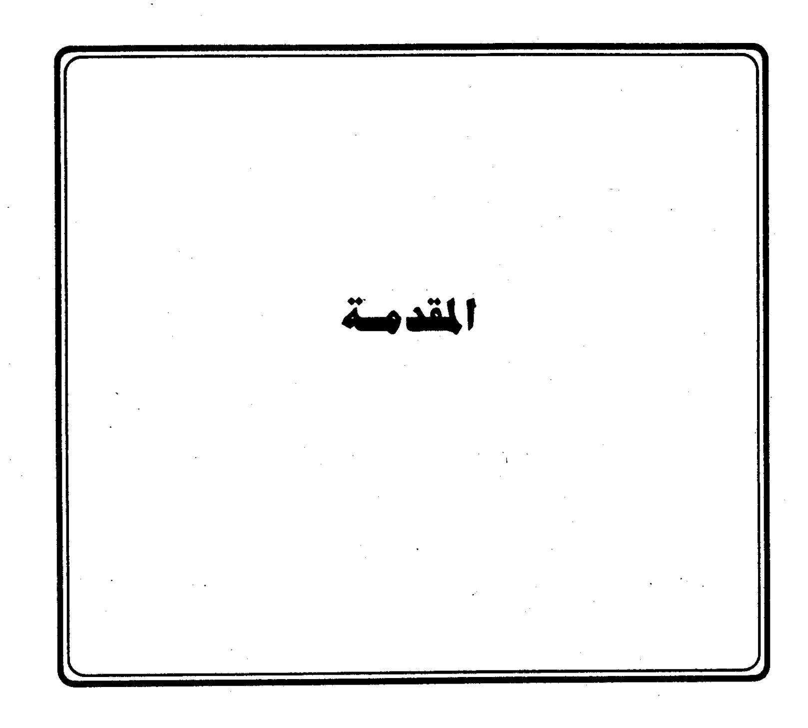


الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م

الطبعة الثانية

٢٠٠٣


المقدمة

المقدمـة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين إلى يوم الدين .

وبعد ..

فإن أحق العلوم بالتعلم ـ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه ـ علم البلاغة الذى يدرك به الإنسان إعجاز القرآن وأسرار البيان ، وبديع التركيب وحسن التأليف . .

والقرآن الكريم كان له أثره العظيم فى نشأة البلاغة وتطورها واتخذت آياته شواهد توضح وتشرح أسرار هذا العلم . .

وقد انفرد القرآن الكريم من بين المعجزات السماوية بأمرين بارزين :

أولهما : أن معجزته هى « الكلمة » التى يعرف الناس مدلولها ، ويأخذون ويعطون بمفهومها ، وأن الإعجاز سر مضمر فيها . .

ثانيهما :أن القرآن الكريم قد تولى بكلماته تلك،الدفاع عن دعوته وإقامة الحجة لها،وأنه بهذه الكلمات قد اشتبك فى حرب طاحنة مع أعداء الدعوة، والمتربصين لها (1) .

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

وكان الرسول ﷺ البلاغى الأول الذى تتلمذ على يديه كبار الصحابة وعظماؤهم،ينهلون من بحر فصاحته الذى لا ينضب ، فتذعن الجزيرة العربية بفحول شعرائها وأسواقها الأدبية أمام فصاحته وبلاغته .

(1) عبد الكريم الخطيب ـ إعجاز القرآن ـ القاهرة ـ دار الفكر العربى ـ ط1 سنة ١٩٦٤م.ـ ٢/ ١٠.

وكان العرب أصحاب نظرة تذوقية وبلاغية ، يستطيعون بها التمييز بين الغث والثمين من الكلام ، ولكن الأمر قد اختلف تماما عندما دخل الإسلام أناس من غير العرب .

وكان للعلماء من بعد ذلك دورهم البارز فى إرساء قواعد البلاغة وتطورها ، فقدم الأدباء والنقاد وعلماء اللغة والبلاغة والمفسرون جهودا خالدة فى هذا الشأن ، فأنارت الطريق أمام الأجيال . . .

وظهرت الدراسات القرآنية التى تبحث فى أسرار إعجاز القرآن الكريم كتاب: (معانى القرآن) للفراء (ت ٢٠٧ هـ) . . وكتاب : (مجاز القرآن) لأبى عبيدة (ت ٢٠٧ هـ) و(إعجاز القرآن) للباقلانى (ت ٤٠٣ هـ) . . و(النكت فى إعجاز القرآن) للرمانى (ت ٣٨٦هـ) . . و(تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) . . و(دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١ هـ) . . و(المغنى فى أبواب التوحيد والعدل) لأبى الحسن عبد الجبار (ت٤١٥هـ) وقد خصص الجزء السادس عشر بالحديث عن إعجاز القرآن . . و(البرهان فى علوم القرآن) للزركشى (ت ٧٩٤ هـ) . . « والزمخشرى فى تفسيره المعروف بـ (الكشاف) قد توسع توسعا شديدا فى تناول النواحى البلاغية حتى يعد كتابه العمدة فى التفسير البلاغى ، فقد طبق فيه آراء عبد القاهر المتعلقة بالمعانى والبيان تطبيقا نموذجيا ، محللا مستقصيا حتى أوفى على الغاية ، ولم يترك من أساليب البلاغة الفنية بابا إلا ولجه وأدلى فيه بسهم » [1] .

ويذكر الزمخشرى فى مقدمة تفسيره الصفات الواجب توافرها فيمن يتصدى للتفسير ، فالفقيه ، والمتكلم، وحافظ القصص والأخبار ، والواعظ، والنحوى ، واللغوى ، لا يستطيع أحد منهم أن يتصدى لسلوك هذا العلم ، أو يغوص على شىء من حقائقه « إلا رجل قد برع فى علمين مختصين

(١) د/ عبد القادر حسين ـ المختصر فى تاريخ البلاغة ـ بيروت ـ القاهرة ـ دار الشروق (ط١) سنة ١٩٨٢م، ص٨ .

بالقرآن ، وهما علم المعانى وعلم البيان ، وتمهل فى ارتيادهما آونة ، وتعب فى التنقير عنهما أزمنة ، وبعثته على تتبع مظانهما همة فى معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله ﷺ بعد أن يكون آخذا من سائر العلوم بحظ ، جامعا بين أمرين : تحقيق وحفظ . كثير المطالعات ، طويل المراجعات ، قد رجع زمانا ورجع إليه وردّ عليه ، فارسا فى علم الإعراب ، مقدّما فى حملة الكتاب . . . » (1) .

ويقول ابن قتيبة: « وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره ، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها فى الأساليب ، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات » (2) .

أهمية الموضوع :

إن مبحث التنكير من أهم المباحث البلاغية ، فقد تناوله النحاة والبلاغيون ، ووقف بعضهم على شئ من أسراره ، لكنى رأيت أن القرآن الكريم الأجدر بالدراسة التى تكشف عن أثر ذلك فى سياق محكم التنزيل.

والقرآن الكريم قد نزل يخاطب قوما قد تمكنت البلاغة من قلوبهم ، وامتزجت الفصاحة بألسنتهم ؛ لذا فقد كانوا أسرع الناس فهما لأساليب القرآن الكريم المختلفة ، وعلموا يقينا أنه ما كان ليوجز فى مقام الإطناب ، أو يطنب فى مقام الإيجاز ، أو يذكر فى مقام الحذف أو يحذف فى مقام الذكر ، أو يعرِّف فى موضع التنكير ، أو ينكِّر فى مقام التعريف . .

وقد اختبأ تحت ذلك التنكير معان نفسية متعددة ، ما كان يقوم بها التعريف ؛ لذا فقد لفت انتباه أصحاب النظر تنكير كلمة ﴿حَيَاةٍ﴾ مثلا فى قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ ﴾ [البقرة:96]، أو قوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [البقرة : 179] ،أو تنكير كلمة ﴿ سَلَامٌ ﴾ فى قوله

(1) الزمخشرى ـ الكشاف ـ القاهرة ـ دار الريان للتراث ـ (ط3) سنة 1987م ـ المقدمة .

(2) ابن قتيبة ـ تأويل مشكل القرآن ـ شرح : السيد أحمد صقر ـ القاهرة ـ دار التراث ـ (ط2) سنة 1973 ـ ص12.

تعالى: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم :١٥] ، بينما قد عرّفها في موضع آخر فيقول جل شأنه : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم :٣٣] .

وما كان التعريف يعطى نفس الدلالات التى أراد الله تعالى صوغها من خلال التنكير الذى لون الأسلوب بالمعانى الرائقة ، فعظّم وحقّر ، وكثّر وقلّل وعممّ . . . حسبما يقتضيه المقام ، ويتطلبه سياق الكلام .

أحد المهتمين بالدراسات البلاغية ينكر أهمية الموضوع :

بعد هذه الجهود العظيمة التى بذلها علماء اللغة والبلاغة السابقون فى تطوير وإرساء قواعد البلاغة ، وجدنا الدكتور أحمد بدوى ـ رحمه الله ـ قد ذهب فى التنكير مذهبا خالف فيه البلاغيين ، ويقول :

« وقفت طويلا عند الاسم النكرة أتبين ما قد يدل عليه التنكير من معنى، ودرست ما ذكره العلماء من معان قالوا إن هذا التنكير يفيدها . .

وبدا لى من هذا التأمل الطويل أن النكرة يراد بها واحدا من أفراد الجنس ويؤتى بها عندما لا يراد تعيين هذا الفرد ، كقوله تعالى : ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [القصص : ٢٠] .

فليس المراد هنا تعيين الرجل ، ولكن يراد هنا أن يصل إلىٰ موسى نبأ الائتمار عليه بالقتل والفكرة بعدئذ تفيد معناها مطلقا من كل قيد ، أما ما يذكره علماء البلاغة من معان استفيدت من النكرة فإنها لم تفدها بطبيعتها وإنما استفادتها من المقام الذى وردت فيه ، فكأنما المقام هو الذى يصف االنكرة ويحدد معناها » [1] .

ولعل أستاذنا يتبع أصحاب النظرية السياقية الذين يقولون : « إن الكلمة لا معنى لها خارج السياق الذى تظهر فيه ، ومما يكوّن هذا السياق ـ بلا

(١) د/ أحمد بدوى ـ من بلاغة القرآن ـ القاهرة ـ دار نهضة مصر ـ بدون تاريخ ، ص١٢٨ .

شك ـ علاقاتها النحوية مع غيرها . . وفى تحقيق هذا صعوبة من غير شك، ولكنه يؤكد على كل حال أن المعانى التى تقدمها المعاجم الحالية للكلمات تقريبية ، وكثيرا ما نجد فى شروح الشعر أن ينص بعض الشارحين أن هذا المعنى أو ذاك مما أغفلته المعاجم »[1] .

فالمعنى يكمن فى الكلمة . والسياق يبرزها ويظهرها ، فالعلاقة بينهما علاقة ترابط وتكامل . .

أما قوله : « إن النكرة يراد بها واحدا من أفراد الجنس ، ويؤتى بها عندما لا يراد تعيين هذا الفرد » قاعدة بلاغية أثبتها علماء النحو والبلاغة منذ مئات السنين ، « فليس مما استنبطه هو كما قال ـ رحمه الله ـ ولكنهم ذكروا أيضا أنها تدل على الجنس ، فهى صالحة عندهم للدلالة على الجنس ،أو على واحد من أفراده ، نحو : جاءنى رجل لا رجلان ، فهى هنا دالة على الواحد ، ونحو : جاءنى رجل لا امرأة فهى هنا دالة على الجنس »[2] .

ومما استشهد به أستاذنا لإثبات ما ذهب إليه قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [البقرة : ٢٧٩] .

يقول : « فكلمة (حرب) منكرة لا تدل على أكثر من حقيقتها ، وإذا كان هناك تعظيم لهذه الحرب فمنشؤه وصفها بأنها من الله ورسوله ، وأن حربا يثيرها الله جديرة أن تبعث فى النفس أشد ألوان الفزع والرعب » .

ويقول : « وقد دل المقام على تعظيم الاسم المنكر فى قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ [الأعراف : ١١٣] ، ذلك أنهم يطلبون مكافأة على عمل ضخم يقومون به هو إبطال دعوة موسى، والإبقاء على دين فرعون ، أو لا يكون ثواب ذلك عظيما

(١) د/ محمد حماسة عبد اللطيف ـ النحو والدلالة ـ مدخل لدراسة المعنى النحوى الدلالى ـ القاهرة ـ مطبعة المدينة ـ (ط١) ـ سنة ١٩٨٣م ـ ص٥٢ .

(٢) د/ محمد أبو موسى ـ البلاغة القرآنية فى تفسير الكشاف ـ القاهرة ـ دار الفكر العربى ـ بدون تاريخ ـ ص٣٢٠ .

يناسبه ؟! » [1] .

وعلى هذا الزعم يستوى تنكير كلمة : ﴿ حَرْبٍ ﴾ و﴿ أَجْرًا ﴾ مع تعريفهما ، فلا فرق بين التعريف والتنكير إذ الفضل للسياق وحده !!

ويقول الدكتور محمد أبو موسى معلقا على ذلك : « إذا كان التعظيم فى كلمة ﴿ حَرْبٍ ﴾ و﴿ أَجْرًا ﴾ مستفادا من السياق وليس من التنكير كما يذكر الأستاذ ، فهل يبقى هذا المعنى إذا زال التنكير وبقى السياق والوصف ؟ أى هل يفيد قولنا : فائذنوا بحرب الله ، أو بالحرب من الله ورسوله ، أو قلنا: إن لنا الأجر ؟! » .

ويقول أيضا : « والواقع أن البلاغيين كانوا فى هذا المقام أكثر فهما وأنفذ إدراكا لخصائص التنكير مما ظن بهم الأستاذ ، وكان كشفهم عن معزى التنكير ووجهه يقوم فى الغالب على الموازنة بين أسلوب التنكير وبين ما يمكن أن يكون عليه الكلام بعد ذهاب خصوصية التنكير وبقاء السياق . . .

ثم يلحظون ذهاب معنى التنكير من الكلمة بذهاب التنكير والسياق باق والمقام هو ، ومن ذلك فى تفسير الكشاف تلك الموازنة بين القراءة المشهورة، وقراءة أبىّ فى قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ ﴾ [البقرة : ٩٦] .

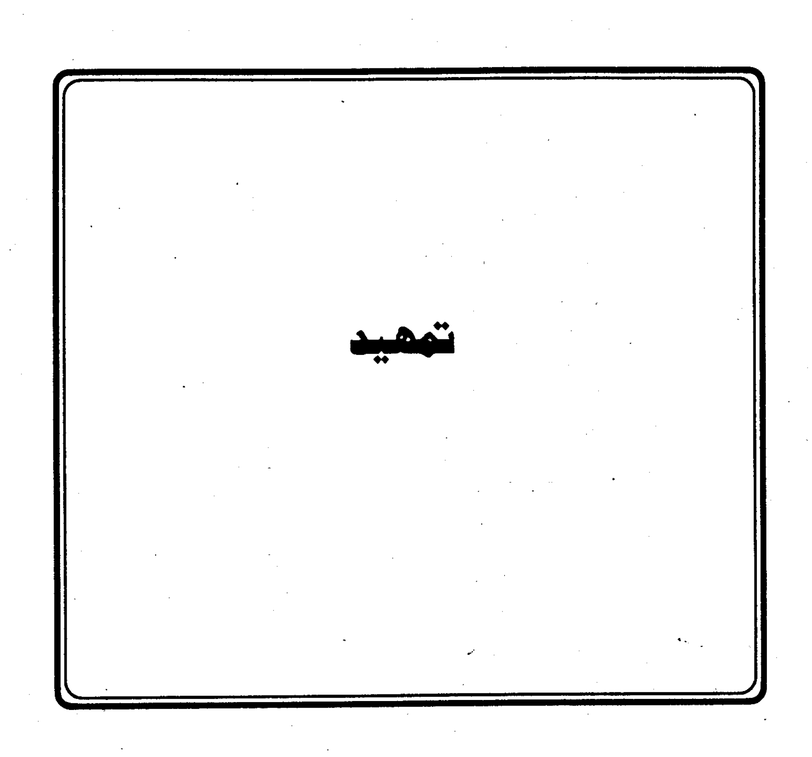
يقول الزمخشرى : ولذلك كانت القراءة بها ، أى بكلمة ﴿ حَيَاةٍ ﴾ منكرة أوقع من قراءة أبىّ (على الحياة) . وقوله : ولذلك . أى : ولأن التنكير يفيد حياة مخصوصة أى حياة متطاولة » [2] .

من هذا يتبين أهمية السياق ، وأهمية الكلمة ذاتها داخل السياق ، وما يلزم من نفاذ الإدراك ورهافة الحس ، وسلامة الفهم لأحوال الأساليب والسياقات المختلفة ، وما ركب فيها من حروف وكلمات .

---

(١) من بلاغة القرآن ص١٢٩ .

(٢) البلاغة القرآنية فى تفسير الكشاف ص٣٢٣ .



تمهيد

تمهيد

مفهوم التنكير بين النحو والبلاغة :

ينقسم الاسم إلى نكـرة ، ومعرفـة ، فالنكرة هى الأصل .. وهى نوعان :

الأول : ما يقبل (ال) المفيدة للتعريف، كإنسان ، وفرس ، وكتاب .

الثانى : ما يقع موقع ما يقبل (ال) المؤثرة للتعريف ، نحو : (ذى) و (من) و (ما) فى قولك : شكرت لذى مال عطاءه .. و (من ـ ما) نكرتان موصوفتان فى قولك : لا يسرنى من معجب بنفسه .. ونظرت إلى ما معجب لك ، فإنها واقعة موقع صاحب وإنسان وشىء .

وكذا اسم الفعل نحو : صهٍ منونا ، فإنه يحل محل قولنا : سكوتا[1].

والأشياء تكون نكرة فى الأصل ثم تعرف ، ومن ثم فقد اعتبر سيبويه النكرة أشد تمكنا من المعرفة ، وأفرد بابًا فى كتابه : (الكتاب) بعنوان : (هذا باب تخبر فيه عن النكرة بنكرة) . وتحدث فيه عن أغراض التنكير ، كأن يأتى للوحدة ، أو الجنس ، أو التعظيم . فيقول :

« يقول الرجل : أتانى رجل ، يريد واحدا فى العدد ، لا اثنين ، فيقول : ما أتاك رجل ، أى أتاك أكثر من ذاك ، ثم يقول : أتانى رجل لا امرأة ، فتقول : ما أتاك رجل ، أى امرأة أتتك ، ويقول أتانى اليوم رجل ، أى فى قوته ونفاذه ، فتقول : ما أتاك رجلٌ ، أى أتاك الضعفاء » [2] .

وقد تكلم سيبويه عن العلاقة بين التعريف والتنكير وبين المخاطَب ـ بفتح

---

(1) أحمد المراغى ومحمد سالم ـ تهذيب التوضيح ـ القاهرة ـ مطبعة السعادة ـ (ط2) سنة 1921م 1/ 29.
(2) سيبويه ـ الكتاب ـ تحقيق وشرح : عبد السلام هارون ـ دار القلم سنة 1966م 1/ 22 .

الطاء ـ حتى يفهم ما يقال ، فيقول فى باب:(الإخبار عن النكرة بالنكرة) :

« وذلك قولك : ما كان أحد مثلك ، وما كان أحد خيرا منك ، وما كان أحد مجترئا عليك ، وإنما حسن الإخبار هاهنا عن النكرة حيث أردت أن تنفى أن يكون فى مثل حاله شىء أو فوقه ؛ لأن المخاطب قد يحتاج إلى أن تعلمه مثل هذا . . . .

وإذا قلت : كان رجل ذاهبا ، فليس فى هذا شىء تعلمه كان جهله . . ولو قلت : كان رجل من آل فلان فارسا ، حسن ؛ لأنه قد يحتاج إلى أن تعلمه أن ذاك فى آل فلان وقد يجهله ، ولو قلت : كان رجل فى قوم عاقلا، لم يحسن ؛ لأنه لا يستنكر أن يكون فى الدنيا عاقل ، وأن يكون من قوم ، فعلى هذا النحو يحسن ويقبح » [1].

ومن علماء اللغة الذين تحدثوا عن هذا الموضوع وما يحسنه ويقبحه : الخليل بن أحمد « من ذلك أنه استقبح التنكير فى الندبة ، وهو لم يكتف بوصف المندوب بالقبح إذا كان منكرا ، بل يعطى سببا وجيها لسر القبح ، فالندبة تكون فى مصاب جسيم ، أو أمر وقعه عظيم ، فلابد أن يكون معروفا وغير مجهول لأحد ؛ إذ كيف يتفجع على شخص غير معروف ، أو أمر غير مكشوف ، وهذا ما لاحظه الخليل فى لغة العرب » [2] .

والجملة فى تركيبها تقوم على أساس العلاقات النحوية ؛ إذ أن النحو يصبغ كل أسلوب بصبغة خاصة تربطه بقائله؛لذا « لابد أن ينظر إليه باعتبا وسيلة نحو التفسير النهائى لتعقيدات التركيب اللغوى ، فإذا ما نظرنا إليه تلك النظرة الخلاقة فسيصبح أكثر معنى وقيمة » [3] .

(١) السابق ١/ ٥٢ .

(٢) د/ عبد القادر حسين ـ أثر النحاة فى البحث البلاغى ـ القاهرة ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ بدون تاريخ ـ ص٥٧ .

(٣) دافيد كريستل ـ التعريف بعلم اللغة ـ ترجمة : د/ حلمى خليل ـ الإسكندرية ـ الهيئة العامة المصرية للكتاب سنة ١٩٧٩م ـ ص١٢١ .

والنحو بإمكاناته الواسعة الأساسية فى العملية الإبداعية يقدم الفائدة المرجوة التى من أجلها أنشئ الكلام بين المتكلم والمتلقى . .

والإمام عبد القاهر الجرجانى ينظر إلى المتلقى فى موضوع التعريف والتنكير نظرة أساسية ؛ لأن المتكلم ركّب جملته وصاغها بما يتفق مع حال المتلقى ، وهذا بالطبع لا يلغى دور المتكلم فهو المصدر . .

« فعندما نقول : (زيد منطلق) يكون الكلام مع من لم يعلم أن انطلاقا كان لا من زيد ولا من عمرو ، فنفيده ذلك ابتداء . .

وإذا قلنا : (زيد المنطلق) كان الكلام مع من عرف أن انطلاقا كان إما من زيد ، وإما من عمرو ، فنعلمه أنه من زيد دون غيره »[1] .

فتنكير الخبر (منطلق) فى الجملة الأولى أفاد الإطلاق وعدم الحصر ، فيجوز العطف بمبتدأ ثان فنقول : (زيد منطلق وعمرو) أى : (وعمرو منطلق أيضا) .

وتعريف الخبر (المنطلق) فى الجملة الثانية أفاد قصر الانطلاق وحصره فى زيد دون غيره ، فلا يجوز أن نقول : (زيد المنطلق وعمرو) . أى يمتنع العطف .

وتكاد سياقات التنكير تنحصر فيما يلى :

١ ـ الدلالة على الفردية أو النوعية .

٢ ـ الدلالة على التعظيم أو التحقير . . أو التكثير أو التقليل .

٣ ـ قصد التمويه والإخفاء .

٤ ـ عدم الرغبة فى الحصر والتخصيص .

وتنويعات البلاغيين على هذه السياقات يجعلها ترتبط فى أغلب الأحيان

(١) عبد القاهر الجرجانى ـ دلائل الإعجاز ـ تصحيح : السيد رشيد رضا ـ القاهرة ـ مطبعة محمد على صبيح ـ (ط٦) سنة ١٩٦٠م ـ ص١٩٦ .

بالمتكلم ، وفى القليل منها بالمخاطب ، خلافا لعبد القاهر(١).

- ففى الدلالة على الفردية مثلا يمتد السياق إلى غرض المتكلم إذا لم يقصد الدلالة على فرد معين من الأفراد التى يصدق عليها مفهوم اللفظ ، نحو قوله تعالى :

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى . . . ﴾ [القصص : ٢٠] .

أى فرد من أشخاص الرجال ، ولم يعين لأن الغرض لم يتعلق بتعيينه ، وإن كان معروفا . . أى الدلالة على فرد منتشر ، وهذا عام فى كل نكرة فإذا كانت مفردة دلت على واحد ، وإذا كانت مثنى دلت على اثنين ، وإذا كانت جمعا دلت على ثلاثة ، وإذا كانت نوعا دلت على النوعية ، أى فرد من سائر الأنواع . . وهذا معنى أصلى للنكرة ، ويعد من البلاغة إذا دل بمعونة المقام على نوعية غريبة أو نحو ذلك (٢) .

- ومثال التنكير للنوعية هذه قوله تعالى :

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ [البقرة : ٧] .

(غشاوة) أى : غطاء ، ومعنى التنكير أن على أبصارهم نوعا من الأغطية غير ما يتعارفه الناس(٣) . وقيل : التنكير للتعظيم . . والأوفق اعتبار التنكير للنوعية والتهويل ، أى أنه نوع هائل غير متعارف بين الناس . .

- وقد يأتى التنكير للتعظيم والتهويل أو للتحقير . . . أى ارتفاع شأنه أو انحطاطه إلى حد لا يمكن معه أن يعرف . . . وذلك مثل قول ابن أبى السمط مروان بن أبى حفصة :

فتى لا يبالى المدلجون بنوره ... إلى بابه ألا تضىء الكواكب

له حاجب فى كل أمر يشينه ... وليس له عن طالب العرف حاجب

(١) د/ محمد عبد المطلب - البلاغة والأسلوبية - القاهرة الهيئة العامة المصرية للكتاب سنة ١٩٨٤م ، ص٢٥٨.

(٢) د/ عبد المتعال الصعيدى - بغية الإيضاح - القاهرة - المطبعة النموذجية - (ط٤) سنة ١٩٥٢ ، ١/ ٨٩ .

(٣) الكشاف ١/ ٥٣ .

فإن التنكير فى حاجب الأول للتعظيم ، وفى الثانى للتحقير . . . أى له حاجب أى حاجب ، وليس له حاجب ما . . .

ـ وقد يأتى التنكير للتكثير ، نحو قولهم : إن له لإبلا . . وإن له لغنما ، وجعل الزمخشرى منه قوله تعالى :

﴿ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا ﴾ [الشعراء : ٤١] (١) .

ـ وقد يأتى التنكير للتعظيم والتكثير معا . . نحو قوله تعالى :

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [فاطر : ٤] .

أى : ذوو عدد كثير ، وقدر عظيم . وفى ذلك تسرية عن النبى ﷺ .

فالتكثير للعدد والكمية ، والتعظيم للقدر والشرف وعلو المنزلة . . وكذلك التقليل والتحقير أيضا ، وإن كان السكاكى لم يفرق بينهما (٢) .

ـ وقد يأتى التنكير للتقليل . . نحو قوله تعالى :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ٧٢] .

أى : وشىء من رضوان الله أكبر من ذلك كله . لأن رضاه هو سبب كل فوز وسعادة (٣) .

النكرة فى سياق النفى تعم :

يقول تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام : ٣٨]

ويعلق عليها الزمخشرى بقوله : « ما معنى زيادة قوله : (فى الأرض) و (يطير بجناحيه) ؟

(١) انظر : بغية الإيضاح ١/ ٩١ .
(٢) انظر : بغية الإيضاح ١٠/ ٩٢ .
(٣) الكشاف ٢/ ٢٩٠ .

معنى ذلك : زيادة التعميم والإحاطة . . كأنه قيل : وما من دابة قط فى جميع الأرضين السبع ، وما من طائر قط فى جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، محفوظة أحوالها غير مهمل أمرها » .

وواضح أنه يلاحظ أن النكرة فى سياق النفى تفيد العموم . وأن الوصفين ـ (فى الأرض) و (يطير بجناحيه) ـ أكدا التعميم والإحاطة [1].

والزمخشرى (ت ٥٣٨هـ) فى هذا يتبع آراء عبد القاهر (ت ٤٧١هـ) فيما ذهب إليه من عموم النكرة فى سياق النفى .

ـ وقد يكون التنكير لأن السياق يقتضى إخفاء المنكر عن المخاطب . . كأن نقول :

أخبرنى فلان عنك بكذا — حتى لا يصيبه مكروه أو أذى [2]

المعنى ودلالة السياق :

إذا أردت أن تنظر إلى دلالة التنكير وأثره فى المعنى ـ أو أى لون بلاغى آخر ـ فيجب ألا تفصله عن سياقه الذى يشمل « كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات »[3] ، فننظر إلى التنكير وصلته بالمباحث الأخرى ، كالذكر والحذف ، وذكر الخاص بعد العام ، والعكس ، والتقديم والتأخير وغير ذلك . .

فالدلالة كامنة فى التنكير لأن الكلمة « تحوى جمالا وقيمة خاصة بها كالأحجار الكريمة »[4] ، والسياق يبرز هذه الدلالة . .

ففى علاقة التنكير بالتقديم والتأخير مثلا ، المعنى لا يختلف سواء قدمنا أو أخرنا . . . بينما يحدث التغير فى الدلالة ذاتها . .

(١) د/ شوقى ضيف ـ البلاغة تطور وتاريخ ـ القاهرة ـ دار المعارف ـ (ط٤) بدون تاريخ ـ ص٢٤٧.

(٢) البلاغة والأسلوبية ص٢٥٩ .

(٣) ستيفن أولمان ـ دور الكلمة فى اللغة العربية ـ ترجمة : د/ كمال بشر ـ القاهرة ـ مكتبة الشباب ـ (ط١٠) ـ ١٩٨٦م ـ ص٦٢ .

(٤) جان برتليمى ـ بحث فى علم الجمال ـ ترجمة: أنور عبد العزيز ـ القاهرة ـ دار نهضة مصر ـ سنة ١٩٧٠م ـ ص١٨١.

ففى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ [الانعام: ١٠٠] ، وجدنا المعنى العام أنهم جعلوا الجن شركاء ، وعبدوهم مع الله سبحانه . .

أما الدلالة فتأتى من وراء الصياغة الإبداعية فى التقديم والتأخير . . ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ فهنا تحريك للألفاظ من أماكنها الأصيلة إلى أماكن أخرى أضفت على الدلالة طبيعة جمالية تفتقدها إذا عدنا بها إلى رتبها الأولى .

فليس بخاف أن تقديم الشركاء له مزية نعدمها إذا نحن أخرناه فقلنا : « وجعلوا الجن شركاء الله » ؛ لأن التقديم أضاف إفادة لا سبيل إليها مع التأخير . .

وبيان ذلك ، أن المعنى للجملة : إنهم جعلوا الجن شركاء ، عبدوهم مع الله ـ تعالى ـ معنى يحصل مع التأخير ومع التقديم ، لكن تقديم (شركاء) المنكر ، يضيف إلى هذه الإفادة معنى آخر ، وهو أنه ما كان ينبغى أن يكون لله شريك ، لا من الجن ، ولا من غير الجن [1] .

أيضا يظهر أمر النكرة إذا قدمت على الفعل ، أو قدم الفعل عليها . . فالسابق المقدم هو محل الاهتمام ومقصد الكلام . .

فإذا قلنا مثلا : أجاءك رجل ؟ فإننا نريد أن نسأله : هل كان مجىء من أحد من الرجال إليه ، فإذا قدمنا الاسم فقلنا : أرجل جاءك ؟ فإننا نسأله عن جنس من جاءه ، أرجل هو أم امرأة ؟ ويكون هذا إذا كنا علمنا أنه قد أتاه آت ، ولكننا لم نعلم جنس ذلك الآتى ، وإذا أردنا أن نعرف عين الآتى فقلنا : أزيد جاءك أم عمرو ؟

ولا يجوز تقديم الاسم فى المسألة الأولى ؛ لأن تقديم الاسم يكون إذا كان السؤال عن الفاعل ، والسؤال عن الفاعل يكون إما عن عينه أو عن

(١) البلاغة والأسلوبية ص٢٦٠ .

جنسه ولا ثالث ، وإذا كان كذلك كان محالا أن تقدم الاسم النكرة ونحن لا نريد السؤال عن الجنس لأنه لا يكون لسؤالنا حينئذ متعلق من حيث لا يبقى بعد الجنس إلا العين [1] .

فلابد - إذن - من توخى معانى النحو فى معرفة المعنى الجمالى ، والغرض البلاغى من تركيب الجملة ، فمما لا شك فيه أن هناك ارتباط وثيق بين النحو والبلاغة فى صياغة الجملة. و«إن من مهام النحوى الأول أن يشير إلى الاختلافات الهامة التى تكمن تحت التراكيب المتشابهة من الظاهر ، أما المهمة الأخرى فهى بيان التشابه الكامن تحت التراكيب المختلفة سطحيا»[2].

وإذا كان المعنى يختلف باختلاف موقع الكلمة فى الجملة الواحدة ، فإن الكلمة ذاتها تعطى معنى مغايرا إذا انتقلت من سياق إلى سياق ؛ لأن « قيمة الأداة التعبيرية تختلف من سياق إلى سياق . . فحرف العطف الواو عندما يتكرر كثيرا فى سياق قصة من قصص القرآن الكريم يعطى للتعبير معنى الاطراد والوقار ، لكن هذه الواو لو تكررت فى قصيدة رومانتيكية فإنها قد تعطى مشاعر تعويق وإبطاء فى وجه مشاعر ساخنة متدفقة » [3].

فهناك صلة وطيدة بين اللفظ والمعنى ، فلا نستطيع أن نفصل بينهما أو نرجع الجمال إلى أحدهما دون أو أكثر من الآخر « فاللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته»[4] ، وبهذا قال ابن قتيبة والرمانى وعبد القاهر الجرجانى وغيرهم . والتفريق بين اللفظ والمعنى قضية قديمة بدأت فى بيئة المعتزلة ؛ لذلك نجد الجاحظ - وهو معتزلى - يعتبر الجمال والقوة فى اللفظ دون المعنى ، بينما ذهب آخرون إلى تفضيل المعنى على اللفظ كالشيبانى ، والآمدى وغيرهما.

---

(١) دلائل الإعجاز ص١٠٢ .

(٢) التعريف بعلم اللغة ص١٣٥ .

(٣) د/ أحمد درويش - دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث - القاهرة - مكتبة الزهراء - بدون تاريخ - ص٢٦ .

(٤) ابن رشيق - العمدة - تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد - بيروت - دار الجيل - (ط٥) - سنة ١٩٨١م، ١/ ١٢٤.

ومما يوضح هذه العلاقة بين اللفظ والمعنى ما وجهه الكندى المتفلسف إلى المبرد العالم اللغوى من قوله : « إنى لأجد من كلام العرب حشواً : فهم يقولون : عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله القائم .. فالألفاظ متكررة ، والمعنى واحد . فقال المبرد : بل المعانى مختلفة لاختلاف الألفاظ..

فقولهم : عبد الله قائم .. إخبار عن قيامه .

وقولهم : إن عبد الله قائم .. جواب عن سؤال سائل .

وقولهم : إن عبد الله لقائم .. جواب عن إنكار منكر قيامه » [1] .

فالحرف لبنة فى الكلمة ، والكلمة لبنة فى الجملة التى تتألف من كلمات متجاورة يجمعها تجانس معنوى متصل ، وعلى هذا فإن الصناعة اللفظية تحتاج فى تأليفها إلى ثلاثة أشياء كما يذكر ابن الأثير :

أولا : اختيار الألفاظ المفردة . . .

ثانيا : نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها . . .

ثالثا : الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه [2] .

ولكل مقام مقال ، ومقال الكلام - عند السكاكى - يختلف باختلاف طبيعة المتلقى . يقول السكاكى : « فمقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار ، ومقام البناء على السؤال يغاير بناء المقام على الإنكار، وكل ذلك معلوم لكل لبيب ، وكذا مقام الكلام مع الذكى يغاير مقام الكلام مع الغبى ، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر » [3].

---

(١) المختصر فى تاريخ البلاغة ص٦٣ .

(٢) ابن الأثير - المثل السائر - تحقيق الدكتورين :أحمد الحوفى وبدوى طبانة - القاهرة - دار نهضة مصر -(ط١). بدون تاريخ ١/ ٢١٠ .

(٣) السكاكى - مفتاح العلوم - بيروت - دار الكتب العلمية - بدون تاريخ - ص٧٣ .

التنكير فى الشعر الجاهلى :

لم يكن القرآن الكريم مخاطبا العرب بما لم يعهدوه من فنون البلاغة على اختلاف أنواعها، بل خاطبهم بما عرفوه وألفوه، حتى إنهم لم يعترضوا على تشبيه القرآن الذى وصف شجرة في النار بأن طلعها كأنه رؤوس الشياطين فى قوله تعالى : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ [الصافات : ٦٥]. وهم لم يروا الشياطين قط . « وقد سأل رجل أبا عبيدة عن هذه الآية قائلا: إنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله ، وهذا لم يعرف فقال أبو عبيدة : إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرئ القيس :

أيقتُلُنى والَمشْرفِىُّ مُضَاجعى ومَسنُونةٌ زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به»[1].

وكذا التنكير أيضا ، ما كان ليأتى بهذه الكثرة ، وتلك الدلالات البلاغية المتنوعة والعرب لم يعرفوه ، بل عرفوه وزينوا به أشعارهم فى كثير من الأحيان . . يقول زهير بن أبى سلمى :

عظيمين فى عليا معد هديتما ومن يستبح كنزا من المجد يعظم

أى (كنزا) عظيما ، والتنكير التفخيمى يدل على العموم أيضا لوقوعه فى سياق الشرط ، وتقييده بشبه الجملة (من المجد) لمزيد من فخامته . .

وقال طرفة :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

نكر (أطلال) للدلالة على الكثرة والعظمة .

وقال عمرو بن كلثوم :

علينا البيض واليَلَبُ اليمانى وأسياف يقمن وينْحنينا

(١) ياقوت الحموى ـ معجم الأدباء ـ القاهرة ـ مطبعة المأمون ـ بدون تاريخ ١٥٨/١٩ .

نكر (أسياف) للدلالة على التهويل ، وقدمها على الفعل (يقمن) لإثارة الانتباه . . .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، حيث فاض الشعر الجاهلى بهذا اللون البلاغى ، وغيره من سائر فنون البلاغة ، حتى نزل القرآن الكريم متحديا لفصاحتهم، ومعجزا لبلاغتهم . . .

* * *

الباب الأول
التنكير وآيات الحياة الدنيا

ويشتمل على :

الفصل الأول : التنكير وآيات العقيدة

الفصل الثانى : التنكير وآيات المؤمنين

الفصل الثالث : التنكير وآيات الكافرين

الفصل الأول
التنكير وآيات العقيدة

التنكير وآيات العقيدة

لقد كان للتنكير دور عظيم فى إبراز معانى هذه الآيات التى تتحدث عن العقيدة الإسلامية ، والقدرة الإلهية ، وهى من أوائل الآيات الكريمة التى نزلت .. وكما هو معلوم أن الآيات المكية قد ركزت بصفة أساسية على العقيدة والتوحيد .

وقد نزلت هذه الآيات الكريمة على قوم حديثى عهد بالجاهلية بما عرفوا به من تفنن فى ألوان الفصاحة والبلاغة ، فلا عجب أن تتوالى الآيات منذ بدايتها ضاربة على هذا الوتر الحساس بغية الوصول إلى القلوب والأخذ بها.

ولنبدأ عرض الآيات ..

يقول تعالى: ﴿ الٓمٓ . ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١، ٢].

(لا رَيْبَ) فالله تعالى ينفى عن الكتاب الكريم كل ريب ، على عمومه وشموله ، فهو ينفى جنسه من الأصل..

ويلاحظ القارئ الكريم أن كل نكرة وردت فى سياق النفى ، فهى تفيد العموم والشمول .

فلا ريب فى كون هذا الكتاب من عند الله عز وجل .. ولا ريب فى أحكامه وشرائعه .. ولا ريب فى حسن تأليفه وبديع ترتيبه .. ولا ريب فى إخباره وإعجازه .

ولذلك استحق الإخبار عنه بالهداية العظيمة التى لا يدرك كنهها ، ولا يقدر قدرها .. (هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) ، وفى ذلك مجاز عقلى ، فقد أسند الهداية للقرآن الكريم - وهو من الإسناد إلى السبب - والهادى فى الحقيقة هو الله

رب العالمين [(١)] .

ثم انظر إلى حسن التقسيم : (الٓمٓ) جملة .. (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ) جملة ثانية .. (لَا رَيْبَ فِيهِ) جملة ثالثة .. (هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) جملة رابعة .

وجيء بها هكذا متناسقة من غير حرف نسق ، وذلك لمجيئها متآخية آخذًا بعضها بعنق بعض .. فالثانية متحدة بالأولى ، معتنقة لها ، وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة ..

ولم تخل كل واحدة من الأربع ، بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق ، ونظمت هذا التنظيم البليغ ، من نكتة ذات جزالة :

ففى الأولى : الحذف والرمز إلى الغرض بألطف وجه وأرشقه ، وفى الثانية ما فى التعريف من الفخامة ، وفى الثالثة ما فى تقديم الريب على الظروف ، وفى الرابعة الحذف ووضع المصدر الذى هو (هدى) موضع الوصف الذى هو (هاد) وإيراده منكرا ، والإيجاز فى ذكر المتقين [(٢)].

ولما كان ذلك كذلك تحدى الله تعالى من اهتزت عقيدته ، أو ارتابت نفسه ، أن يأتوا بشيء يسير من مثله ..

يقول تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣] .

فالتنكير فى: (رَيْبٍ) و(سُورَةٍ) يعكس مدى التحدى لهؤلاء المنكرين ، والتعجيز لهم ، ويثبت صحة نسبه لله تعالى ..

فيقول تعالى لهم : إن كنتم فى أدنى ريب وأقله فى هذا القرآن الكريم. وتزعمون أنه من كلام البشر ، فأنتم بشر ، بل تفخرون بفصاحتكم وبلاغتكم فأتوا بسورة واحدة من عموم سور القرآن الكريم على أن تكون (مِّن مِّثْلِهِ) فى علو الرتبة وسمو الطبقة .

---

(١) محمد على الصابونى ـ صفوة التفاسير ـ بيروت ـ دار القلم ـ (٥) سنة ١٩٨٦م ، ١/ ٣٢..
(٢) الكشاف ١/ ٣٧ .

وبناء الأمر (فَأْتُوا) على المجاراة معهم بحسب حسبانهم حيث كانوا يقولون : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ... ﴾ .

إذن فتنكير (رَيْبٍ) وتصديره بكلمة الشك (إِنْ) للإشعار بأن حقه أن يكون ضعيفا مشكوك الوقوع [1] ، وإما للتنبيه على أن جزمهم ذلك بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح دلائل الإعجاز ونهاية قوتها .

ولم يقل جل شأنه : « وإن ارتبتم فيما نزلنا .. إلخ » لتنزيه ساحة التنزيل عن شائبة وقوع الريب فيه حسبما نطق به قوله تعالى : (لا رَيْبَ فِيهِ) والإشعار بأن ذلك إن وقع فمن جهتهم لا من جهته العالية ، واعتبار استقرارهم فيه وإحاطته بهم لا ينافى اعتبار ضعفه وقلته لما أن ما يقتضيه ذلك هو دوام ملابستهم بدلالة قوته وكثرته [2] .

يقول تعالى : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٥]

فأشار إليه بالتعظيم (هَذَا) ، ونكره للدلالة على بلوغه شأوا عظيما لا يقدر قدره من الفخامة أو النفع ، ثم قيده بالوصف المنكر (مُبَارَكٌ) على صيغة اسم المفعول للدلالة على أن صفة البركة لا تنفك عنه ، فهى حالة ملازمة له ، ولو كان قرىء (مباركًا) بالنصب على الحال جاز [3] .

وتقديم الجملة الفعلية (أَنزَلْنَاهُ) على الصفة (مُبَارَكٌ) لإثبات صفة العلو والعظمة لهذا الكتاب ، وللإخبار عن إعجازه لكونه من عند الله سبحانه ، فالجملة الفعلية يجوز أن تكون صفة أو خبرا ثانيا ، وكان مقتضى السياق :

---

(١) الالوسى ـ روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ـ بيروت ـ دار إحياء التراث العربى ـ (ط٤) سنة ١٩٨٥م ، ١٩٢/١ ، وانظر أيضا :

البيضاوى ـ تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب الخفاجى ـ تركيا ـ ديار بكر ـ محمد أردمير ـ المكتبة الإسلامية ـ بدون تاريخ ، ٣٧/١ .

(٢) أبو السعود ـ تفسير أبى السعود ـ بيروت ـ دار إحياء التراث العربى ـ بدون تاريخ ، ٥١/١ .

(٣) العكبرى ـ التبيان فى إعراب القرآن ـ القاهرة ـ المكتبة التوفيقية ـ (ط١) سنة ١٩٧٩م ، ٢٦٦/١ .

« وهذا كتاب مبارك أنزلناه » .

ولهذه الأسباب المتقدمة جاء الأمر الإرشادى المشدد (فَاتَّبِعُوهُ) وكأنه بتضعيف التاء ينبه إلى الهمة والعزم فى الاتباع ، وكذا فى (وَاتَّقُوا) .

أما عن حذف الألف من اسم كلمة (كِتَابٌ) حسب الرسم العثمانى : (كِتَبٌ) فقد نظر إليه الزركشى ـ رحمه الله ـ نظرة خاصة فيها تأمل ونظر، حيث قد رأى فى ذلك نكتة جزلة ، وإشارة بليغة لمعنى عظيم ، قصده هذا الرسم والخط الإملائى ، ولم يأت هكذا عفوا . .

وقد يكون من المفيد أن نثبت هذا التأمل ، يقول :

« وحذف الألف من (كِتَابٌ) للدلالة على ملكوتيته ، وعلوه ، مما يتقاصر عنه الإدراك والحس . .

واعتبر ذلك فى لفظتى : (القُرْآن) و (الْكِتَابُ) . . فإن القرآن الكريم هو تفصيل الآيات التى أحكمت فى الكتاب ، فالقرآن الكريم أدنى إلينا فى الفهم من الكتاب وأظهر فى التنزيل ، يقول تعالى :

﴿ الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود : ١] .

ويقول تعالى : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٣] .

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ [القيامة : ١٧] .

ولذلك ثبت فى الخط ألف (القُرْآن) وحذفت ألف (كِتَابٌ) وقد حذفت ألف (القرآن الكريم) فى حرفين : هو فيهما مرادف للكتاب فى الاعتبار : يقول تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف : ٢] . ويقول أيضا : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف : ٣] . والضمير فى الموضعين ضمير الكتاب المذكور قبله .

وكذلك كل ما فى القرآن الكريم من (الكتاب) و (كتاب) فبغير ألف إلا فى أربعة مواضع هى مقيدة بأوصاف خصصته من الكتاب الكلى :

١ـ فيقول سبحانه : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد : ٣٨] ، وهو كتاب الآجال، وهو أخص من الكتاب المطلق .

٢ـ ويقول جل شأنه : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الحجر: ٤]، وهو كتاب إهلاك القرى ، وهو أخص من كتاب الآجال . .

٣ـ ويقول تعالى : ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ [الكهف : ٢٧] ، فإن هذا أخص من (الكتاب) الذى فى قوله جل شأنه : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] . لأنه أطلق هذا ، وقيد ذلك بالإضافة إلى الاسم المضاف إلى معنى فى الوجود ، والأخص أظهر تنزيلا .

٤ـ ويقول جل شأنه : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل : ١] . . هذا (الكتاب) جاء تابعا للقرآن الكريم . والقرآن جادنا تابعا للكتاب ، كما جاء فى قوله سبحانه : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر : ١] ، فما فى النمل له خصوص تنزيل مع الكتاب الكلى ، فهو تفصيل للكتاب الكلى بجوامع كلّيته [1] .

وهذه النظرة التأملية، نظرة خاصة بصاحبها لا يمكن اعتبارها أساسا وقاعدة وإنما يمكننا القول بأنها سياحة فكرية لطيفة غير أنها لا تستند إلى قاعدة لغوية أو بلاغية ؛ إذ أن هذا الحذف المذكور وغيره مما أورده فى كتابه القيم (البرهان فى علوم القرآن) حذف فى الخط لا فى النطق، بخلاف إيجاز الحذف، من حذف جملة، أو كلمة أو حرف، ويظهر ذلك فى الكتابة والقراءة.

ولنقف مع آية من كلام ربنا عز وجل . . يقول تعالى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا . قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ [الكهف: ١، ٢]

(١) الزركشى ـ البرهان فى علوم القرآن ـ تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ـ القاهرة ـ مكتبة دار التراث ـ بدون تاريخ ، ١/٣٨٩ .

فنكر العوج وأتى به فى سياق النص ، ليكون هذا النفى شاملا عاما لكل عوج ، والمراد نفى الاختلاف والتناقض عن معانيه وألفاظه . . ويدل على هذا أيضا قوله تعالى : (أنزَلَ) للدلالة على العلو والرفعة ، وأنه من عند الله تعالى .

ويقول سبحانه : (لَهُ) ولم يقل جل شأنه : (فيه) ليكون نفى العوج فى داخله ، ونفى العوج من خارجه إليه . فلا اختلاف أو تناقض فيما بين دفتيه من أحكام وأخبار وخلافه . . ولا يظهر فى الوجود ما يناقض هذا الكتاب الكريم . .

(قَيِّمًا) فيها من حيث التنكير والتركيب والبناء ما يدل على الفخامة الرائقة فى الاستقامة ، ويجوز أن يكون (قَيِّمًا) حال ليعبر ويخبر عن شمول هذه الاستقامة العظيمة للكتاب الكريم كله ، وأن هذا هو شأنه وحاله، وكذا حال من يتمسك باستقامته . .

ويجوز أن ينتصب بمضمر ليدل على طلاقة الاستقامة التى هى صفة لازمة له . وقد اضطربت أقوال النحاة والمفسرين فى إعراب (قَيِّمًا) ، وأقرب الأقوال والمختار منها أن يكون حالا من الكتاب [١] .

وقد جمع السياق بين نفى العوج وإثبات الاستقامة ، وفى أحدهما غنى عن الآخر للتوكيد ، فربّ مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند السير والتصفح [٢] .

وقال الطبرى : هذا من المقدم والمؤخر . . أى أنزل الكتاب قيما ، ولم يجعل له عوجا . يعنى : مستقيما لا اختلاف فيه ولا تفاوت ، ولا اعوجاج ولا ميل عن الحق [٣] .

---

(١) محيى الدين الدرويش ـ إعراب القرآن وبيانه ـ اليمامة ـ دار ابن كثير سنة ١٩٨٨ م ، ٥/ ٥٣٠ .
(٢) الكشاف ٢/ ٧٠٢ .
(٣) صفوة التفاسير ٢/ ١٨٢ .

ثم بيان لوظيفة هذا الكتاب الكريم (لِيُنذِرَ .... وَيُبَشِّرَ) الإنذار .. والتبشير ، ونكر المنذر به (بَأْسًا شَدِيدًا) لتهويله وتفخيمه ، وأطلقه ثم وصفه لإفادة ذلك . ويكفى وصفه بشبه الجملة : (مِّن لَّدُنْهُ) .

وكذا نكر المبشر به (أَجْرًا حَسَنًا) لتعظيم الأجر ، وأطلقه ثم وصفه لإفادة ذلك . وقدم الخبر (لَهُمْ) للتخصيص والحصر والقصر .. وأخر الأجر للتشويق .

وصدق الله تعالى إذ يقول جل شأنه :

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾

[النساء : ٨٢]

يقول تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ . وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ . بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام : ٩٨ - ١٠٢] .

بدأت الايات الكريمة بالضمير (هُوَ) لتأكيد القدرة لله تعالى وحده .. فقد خلقهم وأبدعهم من (نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ) والتنكير للإفراد وهى نفس آدم عليه السلام التى انحدرت منها بلايين البلايين البشرية ، ليدل ذلك على قدرة إلهية مطلقة .

ثم جعل مستقرها فى الأرحام ، ومستودعها فى الأصلاب ، أو فى الأرض .. والمستقر والمستودع عجيبان خارجان عن معهود صنع البشر ، ولهذا نكرهما ؛ ليدلا على عظيم النشأة ودقيق الصنعة حال الاستقرار

والإيداع ، وما احتوى عليه من أمر خفى تتحير فيه الألباب . ولهذا ختم الآية الكريمة بقوله تعالى (يَفْقَهُونَ) بينما ختم الآية التى تسبقها بقوله جل شأنه : (يَعْلَمُونَ) لأنها تتحدث عن خلق النجوم وتسخيرها وهو أمر ظاهر مشاهد . .

و (مُسْتَقَرٌّ) مرفوع على الابتداء[1]، حذف خبره للعلم به والاختصار، والتقدير : (فمستقر لكم) .

ثم تمضى الآيات الكريمة مبينة علاقة القدرة والإعجاز الإلهى ، فبدأ سبحانه الآية الكريمة أيضا بالضمير (هو) لتأكيد ذلك المعنى وقصره على الله تعالى.

فهو الذى أنزل من السماء ماء أى بعضا منه وهو المطر ولهذا نكره . . وبهذا الماء الواحد خرج من الأرض كل أنواع النبات على عمومه وشموله للأصناف والأنواع .

وهذا عام مجمل ، يأتى بعد تخصيص وتفصيل لبيان الإعجاز وطلاقة القدرة (فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا) ونكره لأن كل نبت يبدأ أخضرا أى يقصد الشمول واللفظ (خَضِرًا) أرق ظلا ، وأعمق ألفة من لفظ (أخضر) . . . ثم يتفنن البيان فى عرض مظاهر القدرة الإلهية التى تحيى العقيدة السوية فخصّص بعد أن عمم بقوله جل شأنه : ﴿ نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ .

و(قِنْوَانٌ) بكسر القاف وضمها وهما لغتان ، والواحد : قنو ، ونكرها وقيدها بالوصف لبيان نفعها وعظيم صنعها ، وقد أكد بزيادة التقرير بقوله : (مِن طَلْعِهَا) .

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ . . خَضِرًا . . حَبًّا مُتَرَاكِبًا . . قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ . . جَنَّاتٍ . . ﴾ .

---

(1) التبيان فى إعراب القرآن ١ / ٢٥٤ .

والتنكير فيها لفخامتها وجلال صنعها لتحمل معنى التعجيز والتحدى لهن عبد غير الله تعالى . . فالعالم كله بما وصل إليه ما صنع نباتا (خَضِرًا) أو خلق (حَبًّا مُتَرَاكِبًا) أو (قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ) أو غير دانية . . إنها أشياء منكورة الصنعة لقدرتنا . . فتعالى الله رب العالمين .

ولما وجه الله تعالى النظر لبديع صنعه ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ ختم الآية بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فجمع الآيات ونكرها لكثرتها وعظمتها ، ونكر القوم ثم وصفهم بالإيمان لفخامة شأنهم لأنهم قد استوعبوا عظمة الآيات ، ولذلك يقول جل شأنه : (ذَٰلِكُمْ) ولم يقل سبحانه : (ذلك) ليناسب تلك الإرشادات والمعانى . .

يقول تعالى :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ .

خطاب تقريع وتبكيت لهم ؛ إذ يكفرون بالله سبحانه بعد ما رأوا الآيات الباهرة ، والحجج الساطعة .

ولسوء فطرتهم ، وانقلاب ميزانهم تعدد عندهم الشركاء وكثروا ، ولا يرون حقارة وعجز هؤلاء الشركاء ، ولهذا نكر (شُرَكَاءَ) لإرادة معنى الكثرة والحقارة . . والأصل (وجعلوا لله الجن شركاء) فقدم المفعول الثانى لجعلوا على الأول ، ويقول سبحانه : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ) ، وفائدة التقديم : استعظام أن يتخذ لله سبحانه شريك كائنا ما كان . . ملكا أو جنيا أو إنسا أو غير ذلك ؛ ولذلك قدم اسم الله تعالى على الشركاء [1] .

ومن بلاغة السياق أنه واجه سخف هذا الاعتقاد بكلمة واحدة: (وَخَلَقَهُمْ) وهو لفظة واحدة ، ولكنها تكفى للسخرية من هذا التصور :

ثم زعموا لله سبحانه بنين وبنات . . ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ ﴾ .

(١) الكشاف ٢/ ٥٢ .

فتنكير (بَنِينَ وَبَنَاتٍ) يبين فوضى الاعتقاد والتفكير حتى خرقوا واختلقوا كثرة كثيرة من البنين والبنات .. وفى اللفظة ذاتها (خَرَقُوا) جرس خاص ، وظل خاص ، يرسم مشهد الطلوع بالفرية التى تخرق وتشق [1] .

ويكفيهم غباء وانطماسا أن ذلك : (بِغَيْرِ عِلْمٍ) .

والنكرة فى سياق النفى تعم وتشمل ؛ لترسم بذلك صورتهم الكاملة فى الخرق والتكذيب والافتراء ، وهكذا تعاملهم فى الحياة ، لم يضبطه عقل أو تفكير ، إنما التخبط والأهواء ثم يواجه فريتهم هذه ، وتصوراتهم بالحقيقة الإلهية ، ويناقشهم فى هذه التصورات بما يكشف عما فيها من هلهلة :

﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

كيف يكون له ولد واحد ممن يدعون ظلما وزورا ، ولم تكن له زوجة ما .. أى زوجة على العموم والشمول .. فالإفراد المستفاد من تنكير (وَلَدٌ)، والشمول المستفاد من تنكير (صَاحِبَةٌ) يدلان دلالة قاطعة على وحدانية الخالق وتفرده ..

ومجيء ذلك فى سياق الاستفهام (أَنَّىٰ) الإنكارى التعجبى الاستبعادى يثبت ذلك ويقويه ، وتقديم الجار والمجرور (لَهُ) للدلالة على أن ذلك الأمر لا ينبغى له ، ولا يليق بذاته وجلاله .. ثم كيف يكون له ولد أو زوجة وهو الذى خلق كل شىء ، على عمومه وشموله كما يدل التنكير ولفظ (كُلَّ) .

ثم مظهر آخر من مظاهر القدرة فى تنكير (عَلِيمٌ) فيستفاد التعظيم لعلم الله تعالى من التنكير وصيغة المبالغة ، مضافا إلى ذلك عدم الحصر ، فالله تعالى ، عليم ، وقدير ، ومحيط ... إلخ .

(1) سيد قطب ـ فى ظلال القرآن ـ بيروت ـ القاهرة ـ دار الشروق ـ (ط13) 1987م ، 2/1162 .

يقول تعالى :

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ . وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ . ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٦٦-٦٩] .

بدأت الآيات الكريمة بالتأكيد (إِنَّ) ، والتقديم (لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ) والتنكير (لَعِبْرَةً) . . وتنكير العبرة وإطلاقها دون وصف أو قيد إنما يدل على فخامتها المتناهية المتعددة ، وأخرها لإثارة الانتباه . . وهذا إجمال عام للعبرة ، يليه تخصيص وتفصيل . .

﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ جرس موسيقى قوى ، وإيقاع لفظى سريع ، أحدثه التنكير المتوالى فى الكلمات : فَرْثٍ . . دَمٍ . . لَّبَنًا . . خَالِصًا . . سَائِغًا . .

فنكر الفرث والدم لحقارتهما ونفور النفس منهما ، ثم عظم بتنكير : (لبنا خالصا سائغا) لتظهر بذلك عظمة الله تعالى وقدرته فى خلق اللبن .

وقدم (فَرْثٍ وَدَمٍ) على (لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا) لأنه موضع العبرة فهو قمن بالتقديم ، ولو تأخر فقيل : لبنا من بين فرث ودم كان صفة له [1].

﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ .

(سَكَرًا . . وَرِزْقًا حَسَنًا) ، نكر الأولى ولم يصفها . . ونكر الثانية وقيدها بالوصف المقلل من امتحاض النكرة ، فالتنكير والإطلاق فى (سَكَرًا) للتهويل ، فقد حولوا الثمرات الطيبة إلى مسكرات منكرة الطعم فظيعة الأثر، ولبيان الاستنكار قدم ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ ﴾ ، ولم يقل : تتخذون سكرا ورزقا حسنا من ثمرات النخيل . . .

(١) الكشاف ٢/ ٦١٦ .

والتنكير والوصف فى الثانية (رِزْقًا حَسَنًا) يحتمل التعظيم لرزق الله تعالى ، فجمع بذلك بين العتاب والمنة . فـ (سَكَرًا) رزق غير حسن ، فى مقابلة طيبات الرزق الأخرى ، وكان هذا المفهوم والإيحاء لتحريم الخمر بعد ذلك ؛ لأن الآية الكريمة نزلت قبل تحريمها .

وإرشادا لهذا المعنى ختم الآية الكريمة بقوله : (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) عظم شأنهم بالتنكير والوصف بالعقل وأفرد الآية الكريمة ولم يقل سبحانه : (لآيَاتٍ) كما ورد كثيرا ؛ لأن مقصود الكلام عن آية الثمار ودلائل قدرة الله تعالى فى هذا النوع وحده .

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ .

الهمها الله سبحانه بناء البيوت لها .. إنها (بُيُوتًا) عجيبة الشأن ليست كبيوتنا ، ولهذا نكرها ، ولو عرفها لانصرف الذهن إلى بيوت معهودة معروفة .. ويقول جل شأنه:(مِنَ) فى قوله سبحانه : ﴿ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُون ﴾ ولم يقل جل شأنه فى الجبال وفى الشجر ، لأنه أريد معنى البعضية ، وأن تبنى بيوتها فى كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ولا فى كل مكان منها ..

فحجر عليها فى البيوت ، لأن مصلحتها لا تحصل فى كل موضع ، بينما أطلق الأكل بقوله سبحانه : (ثُمَّ كُلِي) لأن مصلحة الأكل على الإطلاق باستمراء مشتهاها منه ، ولهذا المعنى دخلت (ثُمَّ) لتفاوت الأمر بين الحجر عليها فى اتخاذ البيوت والإطلاق لها فى تناول الثمرات [1] .

وقد ذلل الله تعالى لها السبل ، ووطأها وسهلها .. ولذلك جمع (ذُلُلاً) وذكرها ليفيد هذا التسهيل البليغ المتعدد .

﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ .

(١) الكشاف ٢/٦١٨ .

إنـه شراب عظيم بالـغ العظمة ، ولكى يـدل على هذا المعنى قـدم عليه (مِن بُطُونِهَا) . . وفى هذا مجاز عقلى ؛ لأن مخرجه وصانعه هـو الله تعالى .

ونكـر (مُّخْتَلِفٌ) أيضا ليتبع المعنـى للشراب فـى بديع صنعه ، فقـد بلـغ مـن عظمتـه تعـدد ألوانـه ، فمنـه أبيض وأسود وأصفـر وأحمر . . ومجـىء (مُّخْتَلِفٌ) وسطا بين الشراب والألوان للدلالة على التنوع . والله تعالى أعلى وأعلم.

(فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ) جملة اسمية مستأنفة وهى فى موقع الحال لتبين ثبوت الشفاء لذلك الشراب . . وقدم (فِيهِ) لإثارة الانتباه لعظمة هذا الشراب . . وتنكيره إما لتعظيم الشفاء الذى فيه ، أو لأن فيه بعض الشفاء ، وكلاهما محتمل [1].

قال تعالى :

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا . مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا . فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا . إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف : ٤ ـ ٨] .

يقول سبحانه : (قَالُوا) ولم يقل جل شأنه : اعتقدوا ؛ لأنه مجرد قول وكلام ليس عليه أى دليل أو برهان ، صدر من أصحاب تفكير حقير ، وعقل سقيم ، كما يدل عليهم اسم الموصول : (الَّذِينَ) .

وكان مقتضى السياق أن يأتى ولدا معرفا بأل لتشير (أل) إلى ولد معهود فى الذهن والواقع ، ولكن أبى السياق إلا التنكير ؛ لينكر ذلك على إطلاقه ويثبت التفرد الكامل لله تعالى ، وليس نفى هذا المعهود فحسب .

---

(١) الكشاف ٢/٦١٨.

وفى هذا الإنذار إطناب بذكر الخاص بعد العام .. فيقول سبحانه قبل هذه الآيات الكريمة : (لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا) ، ثم يقول جل شأنه : ﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ لشناعة دعوى الولد لله سبحانه ، وفيه بديع الحذف وجليل الفصاحة ، وحذف المفعول الأول ، أى لينذر الكافرين بأسا شديدا ، ثم ذكر المفعول الأول وحذف الثانى فى قوله سبحانه : ﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ عذابا شديدا ، فحذف العذاب لدلالة الأول عليه ، وحذف من الأول المنذرين لدلالة الثانى عليه ، وهذا من ألطف الفصاحة [1] .

وليس لهم ولا لأسلافهم شىء ما من العلم .. فهم يتكلمون بلا أدنى دليل ، فليس عندهم بعض من جنس العلم كما دل التنكير المنفى المسبوق بـ (مِنْ) .

ولما كان ذلك كذلك فهو يقول جل شأنه : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ .

فعبر بالتنكير والتمييز (كَلِمَةً) للدلالة على شناعة هذه المقالة .

ثم يعقب السياق تعقيبا قاطعا فاصلا : ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ : أى كذبا هائلا ، ومجيئه فى سياق النفى (إن) والاستثناء (إلَّا) لقصر هذا الكلام على الكذب ، فلم يعد يسمى كلاما ، بل كذبا .

ولذلك كان رد الفعل على رسول الله ﷺ عنيفا حتى كاد يقتل نفسه (بَاخِعٌ) من فظاعة وهول الحزن (أَسَفًا) .

وعبر عن قتل النفس بـ (بَاخِعٌ) للدلالة على شدته وحدته ووصوله إلى أقصى درجات القتل .. فالبخع وصول السكين إلى قطع شريان الحياة من رقبة الذبيحة ، وأصل البخع الجهد كما قال الفراء [2] ، وحذف ألفها لإنكار

(١ ، ٢) صفوة التفاسير ١٨٨/٢ .

الله تعالى على رسوله ﷺ سلوكه هذا المسلك الذى يكاد يقتل فيه نفسه هما وغما من أجلهم .

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ .

تنكير (زِينَةً) يدل على أنها حقيرة لا تقارن بزينة الآخرة ، فهى عارضة غير أصيلة ، زائلة غير ثابتة ؛ ولذا قال : (زِينَةً لَّهَا) ولم يقل : زينة فيها ، (لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) فتنكير (عَمَلًا) مع إطلاقه للتعظيم ، دل على ذلك أيضا صيغة أفعل التفضيل (أَحْسَنُ) تحث على المنافسة .

وقوله تعالى : (لِنَبْلُوَهُمْ) معنى لنختبرهم . . غير أن نبلوهم تعنى أن الله تعالى يعلم منذ الأزل ما يصير إليه العباد فى الآخرة ، دون حاجة إلى ابتلاء بخلاف نختبرهم ، ولكن الله يريد إقامة الحجة على العباد .

وقوله : (صَعِيدًا جُرُزًا) الجرز بضم الراء وسكونها :الأرض التى لا نبات فيها [1] ، وقال ابن عباس : الجرز : التى لا تمطر إلا مطرا لا يغنى عنها شيئا [2] . والتنكير يدل على هول وسرعة هذا التحول من الخضراء إلى الجرداء ، وفى ذلك مقابلة بديعة تظهر المعنى قويا .

يقول تعالى :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا . لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا . وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا . لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم ٨٨ ـ ٩٥] .

(١) أبو بكر الرازى ـ مختار الصحاح ـ القاهرة ـ المطبعة الأميرية ـ (ط٧) سنة ١٩٥٣م ـ ص٩٩.
(٢) محمد فؤاد عبد الباقى ـ معجم غريب القرآن ـ القاهرة ـ دار إحياء الكتب العربية ـ بدون تاريخ ـ ص ٢٧ .

(وَقَالُوا .... جِئْتُمْ ...) ولم يقل : لقد جاءوا ، على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، للدلالة على أن من قال مثل قولهم ينبغي أن يكون موبّخا عليه ، منكرا عليه قوله ، كأنه يخاطب به قوما حاضرين [1].

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا) .. فالرحمن معرف ، والولد منكر لأن عظمة الرحمن لا يليق بجلالها أن تقابل بشيء من خلقه إلا منكرا ، وتكرر لأنه هو الرحمن وحده ، ولا يستحق هذا الاسم وهذه الصفة غيره ثم يكون التعقيب على هذه الفرية :

﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ .

فبدأ بإظهار جرأتهم على الله تعالى، وتعرضهم لسخطه عن طريق الالتفات في قوله جل شأنه : (لَقَدْ جِئْتُمْ) بعد قوله سبحانه : (وَقَالُوا).

ثم نكر المجيء به (شَيْئًا) لهوله وفظاعته ، ووصفه ليزيده هولا وفظاعة قوله تعالى : (إِدًّا) فالوصف من حيث تنكيره وبنائه ومعناه كفيل ببيان عظم ما قالوا .. فالإد : العجب كما أفاده ابن خالويه ، وقيل : العظيم المنكر . والإدة : الشدة [2] ، وقال الجوهري : الإد : الداهية والأمر الفظيع [3].

و(هَدًّا) حال تلزم التنكير ؛ لبيان هول وفظاعة المهدود إذا وقع من أثر فريتهم بالحال والتضعيف لأن الهد يشمل الجبال جميعا من أولها إلى آخرها فتحول إلى تراب تذروه الرياح .

ثم يبين السياق من خلال التنكير عظمة الله تعالى في جمعه الكل (عَبْدًا) فالتنكير للدلالة على قلة الشأن وفقر الحال ، والإتيان الخاشع في

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٢٢.
(٢) الكشاف ٣/ ٤٤ .
(٣) صفوة التفاسير ٢/ ٢٢٣ .

ذلك اليوم ، ولا يفوته أحد ، لماذا ؟! لأنه (أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا) ، ونكره معبرا بالمفعول المطلق للدلالة على حقيقة الفعل ودقة العد وفى قوله : (عَدَّهُمْ عَدًّا) جناس لفظى نتج عنه جرس موسيقى يوقظ النفس ، كما حدث أيضا من اتفاق الفاصلة فى حرف الدال .

ثم يبين التنكير هول الموقف وتخلى كل إنسان عن غيره ، فلا ينشغل إلا بنفسه فيقول جل شأنه : (فَرْدًا) من الوحدة والإفراد . فنسأل الله تعالى العافية . .

يقول تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحج : ٥ ، ٦] .

فنكر الريب وصدره بكلمة الشك (إن) ليدل على أنه إن وجد ينبغى أن يكون قليلا فى حجمه وشأنه [(١)] ، فلا يليق بإنسان مع ما يرى من برهان ، وهذا البرهان هو : ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ .

(تُرَابٍ) ، و(نُّطْفَةٍ) ، و(عَلَقَةٍ) ، و(مُّضْغَةٍ) . . مراحل تكوين الإنسان ونكرها للدلالة على الحقارة والقلة لتظهر قدرة الله تعالى وعظمته فى تحويل هذا الشىء الحقير والقليل الذى لا يعبأ به إلى ذلك الإنسان العظيم الذى يفكر ويعمر ويصول ويجول .

(١) تفسير أبى السعود ٣/٤ .

وعطف بحرف العطف (ثُمَّ) ليفيد ترتيب مراحل التكوين مع الفاصل والتراخى فى الزمان ، ثم تتجلى بعد ذلك مظاهر العظمة فى التصوير والخلق (مُخَلَّقَةٍ) ، فالتنكير للتعظيم . .

أو تظل على حالها الأول من الحقارة ولم تصور (غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) ، وفى ذلك طباق سلب يبين الإعجاز والقدرة المطلقة .

﴿ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فنكر الأجل لإطلاقه وعدم علمنا به ، ثم قيده بالوصف (مُّسَمًّى) أى معلوم عنده وحده . . وهو وقت الوضع ، ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ فنكره وأفرده ؛ لأن الغرض الدلالة على الجنس ، ويحتمل : نخرج كل واحد منكم طفلا [1] .

وقال ابن جنى : وحسن لفظ الواحد هنا ؛ لأنه موضع تصغير لشأن الإنسان ، وتحقير لأمره ، فلاق به ذكر الواحد لذلك لقلته عن الجماعة [2] ، و(شَيْئًا) نكرة فى سياق النفي للشمول ؛ لتبين حالة من يصل إلى أرذل العمر فى كونه يعود إلى ما كان عليه فى أوان الطفولة من ضعف البينة ، وسخافة العقل ، وقلة الفهم ، فينسى ما علمه وينكر ما عرفه .

﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ .

فالأرض نراها رؤية حقيقية (هَامِدَةً) ميتة ، لا حياة فيها ولا نبات ، ونكرها لإرادة الحقيقة من موتها ، فهى هامدة همودا تاما ، ثم تتحول إلى أرض حية حياة تامة بمجرد نزول الماء عليها ، فتنبت من كل أنواع الزروع والنبات على مختلف أشكالها ، وعموم وشمول أنواعها ، وفى ذلك مقابلة بديعة تظهر قدرة الله تعالى ، وفى قوله :﴿ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ ﴾ مجاز عقلى ، حيث أسند هذه الأفعال إلى الأرض ، والفاعل الحقيقى هو الله

(١) الكشاف ٣/ ١٤٥ .

(٢) أثر النحاة فى البحث البلاغى ص٣٣١ .

تعالى .

وهذا لأن : ﴿ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

فالله تعالى قد عظمت قدرته عظمة مطلقة كما يدل التنكير وصيغة المبالغة فى (قَدِير) ، وفيها أيضا إرادة عدم الحصر .. فالله تعالى على كل شىء قدير .. وهو بكل شىء محيط وعليم وخبير ... إلخ .

فصور لنا التنكير أنموذجين لقدرته تعالى ، فجعل الأول فى بيان مراحل تكوين الخلق ، مستخدما التنكير مع الدلالة اللفظية حيث يقول سبحانه : (نُطْفَةٍ) لأنها تنطف من صلب الرجل دلالة على حقارتها وقلة شأنها ، ويقول سبحانه : (عَلَقَةٍ) لأنها تعلق على جدار الرحم ، ويقول جل شأنه : (مُضْغَةٍ) لأنها قطعة لحم قدر ما يمضغ من الطعام بل فيها ثنايات وتعاريج وكأنها قد مضغت بالفعل .. إننا نرى ذلك كله ونشاهده من خلال رسم هذه اللوحة الفنية التى صورت الإنسان من بداية نطفته إلى خروجه طفلا فشابا بلغ أشده فشيخا بلغ أرذله ..

ونشاهد فى الأنموذج الآخر صورة الأرض جرداء بلا حياة ولا نبات فإذا بنا نراها حية مخضرة متزينة بعد نزول الماء عليها ..

يقول تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً . ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا . وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا . لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا . وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا . وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا . فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا . وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا . وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا

وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا . وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ [الفرقان : ٤٥ ـ ٥٥] .

تبدأ الآيات الكريمة فى عرضها لمظاهر القدرة الإلهية بالاستفهام التقريرى (أَلَمْ تَرَ ...) إنه لو شاء لجعل الظل (سَاكِنًا) ولكنه لم يشأ فجعل الشمس على تحريك الظل (دَلِيلاً) وفى ذلك تتجلى مظاهر القدرة وعظمتها .. فنكر السكون والدليل لدليل تمام الفعل وحقيقة وفخامته ، وسبقهما بالفعل جعل الدال على التحويل إمعانا فى إظهار هذه القدرة التى تستطيع أن تأتى بالشىء وضده فى وقت واحد .

وتنكير (سَاكِنًا) فيه التعظيم مع التهويل؛ لأن الظل لو سكن لاستحالت الحياة على الأرض ، ومن ثم كان هذا التحويل والمد والشمس (دَلِيلاً) عظيما على قدرة الله ورحمته بعباده .

﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أى شيئا فشيئا حتى لا يضر العباد .. فالتنكير للتقليل مع الليونة واليسر ، دل عليه الوصف المنكر (يَسِيرًا) فقد أطلق القبض الموحى بالقوة فلم يلبث أن وصف وصفا يوحى بالسهولة والدقة .

ثم يعرض السياق مظهرا آخر من مظاهر القدرة مبتدئا بالضمير الدال على التوكيد والتخصيص (هُوَ) أى : هو وحده لا غيره الذى جعل (اللَّيْلَ لِبَاسًا)، و(النَّوْمَ سُبَاتًا) ، و(النَّهَارَ نُشُورًا) .. ويظهر فى هذه حسن تقسيم وموسيقى ، وبين الجملتين الأخيرتين مقابلة بديعة لإظهار قدرة الله تعالى .

والتنكير فى هذه الكلمات للتضخيم فى الحدث لتدل على تضخيم القدرة .. وقد بدأ بذكر الليل لأنه الأصل ، وجعله لباسا يلبس الكون كله

وفى ذلك تشبيه رائق بديع ، فإذا لبس الليل الكون ، جاء النوم تبعا لذلك، ولذلك أتى بـ (سباتا) نكرة لتدل مع لفظها على قوة النوم فى الأخذ بلب الناس والسيطرة عليهم ، والسبات : الموت ، والمسبوت : الميت ، والنوم موتة صغرى ، فهو توافق لفظى ومعنوى .

فإذا جاء النهار انتشرت الخلائق انتشاراً مطلقا بعد أن كان سباتا عميقا ، فالتنكير للتعظيم واضح لإظهار هذه الأحوال والتغيرات . . والنشور : البعث وفيه أيضا توافق لفظى ومعنوى مع النهار .

ونرى التنكير هنا قد ساهم فى إثبات قدرة الله تعالى ، وأثبت إعجاز القرآن متعاونا مع المظاهر البلاغية الأخرى . . فبعد أن بدأ بضمير التوكيد (هُوَ) ثنى بالاسم الموصول (الَّذِي) الدال على التعظيم ، ثم جاء بالفعل (جَعَلَ) ليدل على قدرته الفائقة فى تحويل الكائنات إلى أضدادها . وأتى بالتراخى فى (ثُمَّ) للدوران المطرد بين الشمس والظل .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ .

(بُشْرًا) عظيما ؛ لأنه سبحانه يقول بعدها : (بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ) وهى استعارة بديعة أى قدام المطر . والالتفات إلى نون العظمة فى قوله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ لإبراز كمال العناية بالإنزال ؛لأنه نتيجة ما ذكر من إرسال الرياح التى تحمل الرحمة للعباد، ولذلك لم يقل جل شأنه : الريح ؛ لأن الريح للعذاب ، ويقول تعالى : ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ. تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف : ٢٤ ، ٢٥] .

وتنكير (مَاءً) لأنه نوع عظيم منه وهو المطر ، ووصفه بما يليق بهذه الفخامة فيقول سبحانه: (طَهُورًا) ويقول جل شأنه: (أَنزَلْنَا) لأنه يناسب نزول المطر بما فيه من اندفاع وهطول متتابع مرة واحدة ، ولذلك لم يقل سبحانه : نزلنا .

ويقول جل شأنه : (مِنَ السَّمَاءِ) أى من جهة السماء ، لأن كل ما يعلو الإنسان سماء .. وهذا المطر قد نزل من السماء لإحياء البلد الميت : (لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا) والتنكير للجنس والبعضية فى البلدة ، والتذكير لأن البلدة بمعنى البلد ، ولأنه غير جار على الفعل كسائر أبنية المبالغة فأجرى مجرى الجامد ، والمراد به القطعة من الأرض عامرة كانت أو غامرة . والمعنى كأنه يقول سبحانه : لنحيى به بعض البلاد الميتة ،ونسقيه بعض الأنعام والأناس ، وذلك البعض كثير [1] .

ونكر (مَّيْتًا) للدلالة على الحقيقة اللاصقة بالأرض ولهذا يقول سبحانه (مَيْتًا) بالتخفيف لتظهر بذلك قدرة الله تعالى فى إحياء الموتى . قال الزمخشرى - رحمه الله : قوله سبحانه : ﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ يريد بعض بلاد هؤلاء المبتعدين عن مظان الماء ، وقدم إحياء الأرض وسقى الأنعام على سقى الأناس ؛ لأن حياة الأناس بحياة أرضهم وحياة أنعامهم ، فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم ؛ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقيا أرضهم ومواشيهم ، لم يعدموا سقياهم .

ونكر الأنعام والأناس ووصفها بالكثرة ، لأن علية الناس وجلهم منيخون بالقرب من الأودية والأنهار ومنابع الماء ، فبهم غنية عن سقى السماء ، وأعقابهم - وهم كثير منهم - لا يعيشهم إلا ما ينزل الله تعالى من رحمته وسقيا سمائه [2] .

(فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) كفرا شديدا هائلا ولهذا نكره وأطلقه دون وصف لفظاعته بعد ما رأوا من هذه الآيات والنعم .

ثم يخاطب الله تعالى رسوله ﷺ قائلا : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا . فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ .

---

(١) البيضاوى ٦ / ٤٣٠ ، وروح المعانى ١٩ / ٣ .

(٢) انظر : الكشاف ٣ / ٢٨٥ ، وتفسير أبى السعود ٤ / ٩٥ .

فلو شاء الله تعالى لخفف عنه أعباء نذارة جميع القرى ، وبعث فى كل قرية على شمولها نبيا ـ كما يدل التنكير ولفظ (كُلِّ) ، وتنكير (نَّذِيراً) للتعظيم ، أى : نذيرا عظيما ، ولكن الله تعالى لم يفعل ذلك وقصر الأمر عليه تعظيما لشأنه ، وتفضيلا له على سائر الرسل .

ولذلك يأمره بعدم طاعة الكافرين ، وبجهادهم جهادا كبيرا لا يقدر قدره كما وكيفا كما يدل التنكير والوصف . .

ثم يتعرض السياق ثانية لمظاهر قدرة الله تعالى فى كونه ، فهو الذى مرج البحرين : (هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) .

مقابلة رائقة بينهما . . فهذا بليغ العذوبة حتى يضرب إلى الحلاوة ، ولهذا نكره ليدل على هذا المعنى . . والآخر نقيضه ، فهو هائل وفظيع الملوحة ، والتنكير فيهما يكاد يذيقنا طعم الاثنين ، من حلاوة ، وملوحة شديدة .

وهما متجاوران ، لا يطغى أحدهما على الآخر لوجود حائل غير مرئى من قدرة الله تعالى ، ولهذا نكره ؛ لأنه حائل أو حجاب من نوع عظيم غير متعارف للناس أو معهود لهم . .

﴿وَحِجْراً مَّحْجُوراً﴾ كلمة يقولها المتعوذ ،وهى هنا على سبيل المجاز ، والتنكير للتعظيم ، وفى ذلك تشخيص لتظهر اللوحة الفنية فى أجمل صورتها . . ويظهر السياق مظاهر قدرة الله تعالى فى خلق البشر .

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ .

فالتنكير فى هذه الكلمات يدل على التكثير . . أى خلق من الماء (بَشَراً) أى جنسا بشريا كثيرا فجعله (نَسَباً وَصِهْراً) كذلك . .

ولذلك ختم الآية بما يناسب عظمة الله تعالى وقدرته : ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ أى بليغ القدرة ، وتدل صيغة المبالغة مع التنكير على التفخيم وعدم الحصر أيضا . .

ولذلك يختم الآية الكريمة بما يناسب ذلك : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾

ونكره لتهويل جرأته ، وفظاعة كفره ، وبإطلاقها مع معناها جمع كل مظاهر الفجور والكفر .

ويخاطب القرآن الكريم هؤلاء الجاحدين فى غير موضع هذا الخطاب العقلى المنطقى القائم على النظر فى ملكوت الله تعالى والتدبر فى نظامه . .

يقول تعالى : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ . أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ . وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ . وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ . وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ . رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق : ٥ ـ ١١] .

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ ﴾ إضراب عما سبق ، لبيان ما هو أفظع وأشد من تعجبهم ، والتكذيب بآيات الله تعالى ورسوله ﷺ لذلك فهم فى (أَمْرٍ مَّرِيجٍ) أى مضطرب ، وقد نكر (أَمْرٍ) ثم وصفه للتهويل وتعظيم حيرتهم ؛ ليدل ذلك على اضطرابهم الفكرى والنفسى ، فلا اضطراب ولا تخبط أشد من هذا ولذلك قصره عليهم بقوله جل شأنه : (فَهُمْ) .

ثم خطاب تبكيت لأن تنظروا فى الكون . . فالسماء فوقهم مبنية مزينة ، ليس فيها أى تصدع أو تشقق ولو قليل ، وهذا معنى التنكير ، ودخول (من) لتوكيد ذلك المعنى ، وهذا القليل المنفى يشمل السماء كلها . .

وكذا شأن الأرض فى العناية الإلهية ، والرعاية الربانية ، فقد ثبتها تعالى بالرواسى الثابتة . . ونكرها لشدتها ورسوخها وكثرة انتشارها ، وحذف الألف منها للدلالة على أنها أمر علوى صنعه الله تعالى ، ثم زين الله الأرض بإنبات النبات فيها من كل نوع وشكل على شموله وعمومه ، كما يدل التنكير ولفظ (كُلِّ) ، وكذا الوصف المنكر (بَهِيجٍ) يوحى بالفخامة والحسن . .

﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ فيها حذف رائق للفعل ، أى فعلنا ذلك تبصرة ، وهو للاختصار والاهتمام بالسبب (تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ) الذى فعل الله من أجله ما سبق و التنكير فيهما للتعظيم ، وجمع بينهما ليكون قد جمع بين الاعتبار بالبصر ، والتذكر بالقلب ، وقيد إطلاق العبد فى (عَبْدٍ) بالوصف المنكر (مُنِيبٍ) ليقلل من امتحاض النكرة ، أى أن هذ التبصرة والذكرى ليست لكل عبد ، إنما العبد المنيب .

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ .

يقول سبحانه هنا (نَزَّلْنَا) ليفيد النزول العمومى المتقاطع على مر الشهور والسنين ، وتنكير (مَاءً) كما سبق للنوعية ، أى نوعا منه وهو المطر ، ووصفا بالتنكير (مُبَارَكًا) للتعظيم .

ونشأ عن هذا المطر (جَنَّاتٍ) كثيرة وعظيمة ، ولهذا نكرها .

ثم يكشف السياق عن آية آخرى من آيات الله العظيمة وهى النخل الباسقات أى المرتفعة المتطاولة .. بسق النخل أى طال [1] ، وفى التركيب والتنكير ما يدل على تعظيم الصانع والصنعة .

وهذا كله (رِزْقًا) للعباد ، وكأنه جواب لمن سأل : لماذا أنبت الله هذا كله ؟ فكان الجواب (رِزْقًا لِّلْعِبَادِ) ونكره لكثرته وفخامته ، وحذف فعله ، ونصبه على المفعول به لإثارة الذهن والانتباه إلى المنبت الرازق جل شأنه ، ويجوز أن يكون مفعولا مطلقا على أنه مصدر من معنى أنبتنا أو حالا ، أى مرزوقا للعباد [2] .

(١) مختار الصحاح ـ ص ٥٢ .
(٢) إعراب القرآن ، ٩/ ٢٨٥ .

الفصل الثانى

التنكير وآيات المؤمنين

التنكير وآيات المؤمنين

لم تكن هذه الآيات التى تتحدث عن المؤمنين بأقل من آيات القيامة ، أو الجنة ، أو النار ، فقد قام التنكير من خلال السياق باستخراج تلك الدرر القابعة فى ضمير الآيات واللآلئ المنثورة هنا وهناك .

فتوقف مع المؤمنين ، ودار حولهم ، وسبر غورهم ، ونفذ إلى أعماقهم محلقا فى آفاقهم النفسية ، مستخرجا صفاتهم وأحوالهم .

يقول تعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ١٥٧] .

هذا الابتلاء يكون بشىء قليل من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وإنما قلّله بالإضافة إلى ما وقاهم منه ليخفف عليهم ، أو بالنسبة إلى ما يصيب به معانديهم فى الآخرة، والقلة تؤخذ من لفظ (شىْءٍ) وتنكيره ؛ لأنه استعمل فى ذلك ، ولهذا عيب على المتنبى قوله فى الفلك :

فعوقه شىء عن الدوران (١)

وفى هذا التقليل عظة وعبرة للمؤمنين، فالتقليل ـ كما يذكر الزمخشرى ـ يؤذن أن كل بلاء أصاب الإنسان وإن جل ففوقه ما يقل إليه ، وليخفف عليهم ويريهم أن رحمته معهم فى كل حال ، وإنما وعدهم ذلك قبل كونه ليوطنوا عليه نفوسهم (٢) .

---

(١) الطبرى ـ جامع البيان فى تفسير القرآن ـ بيروت ـ لبنان ـ دار المعرفة ـ بدون تاريخ ١ / ٢٠٥ ، والبيضاوى ١ / ٢٥٩ ، وروح المعانى ٢ / ٢٢

(٢) الكشاف ١ / ٢٠٨ .

فإذا أصابتهم مصيبة ما استرجعوا .. أى مصيبة .. كبيرة كانت أو صغيرة فهى نكرة فى سياق الشرط فتعم ، مما يعكس حال المؤمنين وثباتهم عند المكاره ورضاهم بقضاء الله تعالى .

ومما يهون على المؤمنين مصائبهم اعتقادهم بأن الجميع راجع إلى الله تعالى دون تخصيص ، الرجوع مستمر .. رجوع بعد رجوع .. عود لا يتوقف ولهذا نكره فقال : (رَاجِعُونَ) ..

ولما كان هذا الحال العظيم منهم ، أشار الله سبحانه وتعالى إليهم بإشارة التعظيم (أُوْلَئِكَ) ليرفع مكانتهم عنده ، وأثابهم على تلك العظمة فخامة فى الصلوات ـ أى الثناء والتمجيد ـ والرحمة . فالتنوين فيهما للتفخيم ، والتعرض بعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميرهم (رَّبِّهِمْ) لإظهار مزيد العناية بهم [1] .

ثم كرر اسم الإشارة (أُوْلَئِكَ) لتأكيد التعظيم ، وزاد فى المدح والثناء عليهم فقصر الهداية عليهم فقال : (هُمُ الْمُهْتَدُونَ) وهو من نوع قصر الصفة على الموصوف .

يقول الله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٢٦١ ، ٢٦٢] .

هذا تمثيل لتصوير الأضعاف .. كأنها صورة ماثلة بين عينى الناظر ، فيرى المنفق صدقته رأى عين فى واقع حياته وكأنها ساق ينشعب منه سبع شعب ، لكل واحدة سنبلة لها مائة حبة .

فالصدقة القليلة تصبح عند الله سبحانه وتعالى كثيرة .. أضعافا

(١) صفوة التفاسير ١ / ١٠٧ .

مضاعفة .. ولهذا نكر حبة فقال : (كَمَثَلِ حَبَّةٍ) أي حبة من جنس الحبوب قليلة العدد والقيمة .. فتصبح كثيرة العدد، عظيمة الشأن، وفيه تشبيه مرسل مجمل ؛ لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه [1] .

﴿ أَنبَتَتْ سبع سنابل فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ﴾ ولهذا نكر العددوأبهمه ثم ميزه بجمع التكثير (سَنَابِلَ) دون جمع القلة : سنبلات ؛ ليدل على الكثرة ، وفي إسناد النبات إلى الحبة مجاز عقلي .. وهذا الإنبات قد شمل وعم السنابل جميعها فلم تعطب واحدة منها كما ذلت كلمة (كُلِّ) وتنكيرها .. وكذا شأن صدقات المؤمنين لم يذهب شيء منها هباء منثورا ..

وجمع السياق بين السعة والعلم (وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) ليدل على الكرم والود الذي لا حدود ولا نهاية له فنكره لعدم الحصر .. وكذا الحال في (عَلِيمٌ) ، وجمع بينهما يدل على أن هذا الجود والكرم لمن صدقت نيته في إخراج صدقته وابتغى بها وجه الله وحده ، وهذا من عمل القلوب ، ولا يطلع على القلوب إلا رب القلوب سبحانه .

سلوك آخر لهؤلاء المؤمنين بعد ما صدر الإنفاق منهم ، وهو عدم المن والأذى .. لا يصدر منهم منّا ما ، ولا أذى ما .. من أي نوع ، فالنكرة المنفية للعموم والشمول مما يدل على صدق نيتهم ، وصفاء سريرتهم ، وتمام وجهتهم لله تعالى فمنعهم ذلك من إتباع صدقاتهم بأي منّ أو أي أذى على اختلاف أشكاله وأنواعه . وهو من باب ذكر العام بعد الخاص ، لإفادة الشمول ؛ لأن الأذى يشمل المن [2] .

ولهذا صدر الآية باسم الموصول (الَّذِينَ) الدال على تعظيمهم ، وعطف بحرف العطف (ثُمَّ) الدال على تراخي الزمان ، وليدل على ثبوتهم على هذه الحالة الكريمة مهما طال الزمان ..

---

(١) صفوة التفاسير ١ / ١٧١

(٢) المصدر السابق نفسه .

والله تعالى أعد لهم أجرا لا يدرك كنهه ، ولا يقدر قدره من الكثرة والعظمة ، وهذا الأجر أعد خصيصا لهم ، فهو مقصور عليهم ، ومحصور فيهم ، ولذلك قدم شبه الجملة (لهم) ، وأخر الأجر للتشويق إليه . .

والتعرض بعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميرهم (ربهم) لإظهار مزيد من العناية بهم .

ولما وصفهم الله سبحانه وتعالى بنفى شمول المن وعموم الأذى ، قابل ذلك أيضا بنفى شمول الخوف والحزن عنهم . .

ثم تمضى الآيات الكريمة ، ويقف بنا السياق فى نفس السورة مع صورة بيانية أخرى تصور حال هؤلاء المؤمنين المنفقين فى سبيل الله جل وعلا .

يقول تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٥] .

صدرها أيضا بالتعظيم من شأنهم عن طريق اسم الموصول (الَّذِينَ) ؛ لأنهم قد أنفقوا أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم . .

وفى قوله : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ ﴾ حذف تقديره : ومثل نفقة الذين ينفقون ؛ لأن المنفق لا يشبه بالجنة ، وإنما تشبه النفقة التى تزكو بالجنة التى تثمر ، فالحذف إسقاط للتخفيف [١] .

والتنكير فى (تَثْبِيتًا) يدل على تفخيمه وقوته ، كمن ثبت الوتد فكان إنفاق المال تثبيتا لنفوسهم على الإيمان واليقين ، و(مِّنْ) للتبعيض ، أى من بذل ماله لوجه الله سبحانه فقد ثبت بعض نفسه ، ومن بذل ماله وروحه معا فهو الذى ثبتها كلها . ويجوز أن تكون (مِّنْ) لابتداء الغاية ، ويراد من (تَثْبِيتًا) حنيئذ : وتصديقا للإسلام [٢] .

(١) الباقلانى ـ إعجاز القرآن ـ القاهرة ـ مطبعة الحلبى ـ (ط١) سنة ١٩٧٨م ـ ص ٧٨ .
(٢) الكشاف ١ / ٣١٣ .

فمثلهم ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾ . . أعاد ذكر المثل مرة أخرى لتعظيم شأنهم بفخامة ذلك المثل المضروب لرسم اللوحة الفنية المعبرة عن حالهم إذاء هذا الصنيع الكريم، وفى تنكير (رَبْوَةٍ) الإفراد والتفخيم ، وهى بضم الراء، وفتحها ، وكسرها . . ثلاث لغات ، وفيها لغة أخرى رباوة[1].

فمثلهم كمثل عظيم هو : وجود جنة عظيمة الأشجار والثمار ، فى ربوة مرتفعة عظيمة المكان والمكانة، وخصها لأن الشجر فيها أزكى وأحسن ثمرا . . وقد أصابها مطر عظيم القطر ، فهى نكرات للتعظيم ، أما تنكير (طَلٌّ) فهو للتقليل ، وبذلك تتضح معالم الصورة الفنية فى تمثيل حال المؤمنين المنفقين فى سبيل الله تعالى بالجنة على الربوة ، ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل ، وكما أن كل واحد من المطرين يضاعف أكل الجنة ، فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة ـ بعد أن يطلب بها وجه الله تعالى ـ زاكية عند الله جل شأنه زائدة فى زلفاهم وحسن حالهم عنده[2] .

وهذه الصورة التى فى هذه الآيات تقابل صورة المنفقين المرائين فى الآيات السابقة حيث يقول سبحانه : ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ... ﴾ وسيأتى الكلام عليها ـ إن شاء الله تعالى ـ عند الحديث عن تلك الآيات التى تتحدث عن الكافرين .

ولذا فقد ختم الله سبحانه الآيات التى تتحدث عن المؤمنين وإنفاقهم فى سبيله وابتغاء مرضاته بقوله جل شأنه : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ . واختار البصر؛ لأنه مطلع على تلك الأعمال وهذه السلوكيات، فهو بصير بالفعل الظاهر، بصير بالانفعال القلبى والدافع النفسى لكل ما يقدمه الإنسان من خير وبر ، ولهذا قدم العمل فقال: (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) ليتنبه الإنسان إلى نيته وعمله.

(١) التبيان فى إعراب القرآن ١/ ١١٣ .
(٢) الكشاف ١ / ٣١٣ .

فلا حدود لهذا البصر البصير ، ولا نهاية له ، فقد بلغ من العظمة ما لا يدركه وصف أو يحيط به خيال ، ولهذا نكره ، وبالغ فى صيغته . .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ . رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ . فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٥] .

فبدأت الآيات الكريمة فى وصف المؤمنين بأنهم أولو الألباب، حتى لكأن ما فى الكون من مظاهر القدرة الإلهية من آيات كثيرة وعظيمة مقصورة عليهم ومحصورة فيهم للعظة والاعتبار . . ولهذا قدم الآيات وجمعها ونكرها . .

ثم يعظم من شأنهم باسم الموصول الدال على التعظيم (الَّذِينَ) ، ويذكر سمة أخرى لهم ، بعد سمة اللب القويم والطبع السليم ، وهى : أنهم يذكرون الله تعالى : (قِيَامًا . . وَقُعُودًا . . وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ) .

فذكرهم لله سبحانه يشمل كل حالهم فى عامة أوقاتهم . . فى حال القيام ، والقعود وحال الاضطجاع . .

والله تعالى يخبرنا عن حالهم هذا بالحال التى تلزم التنكير (قِيَامًا وَقُعُودًا) فيدل على مداومة الذكر واستمراره فى معظم هاتين الحالتين . . وحالة القيام والقعود أكثر من حالة الاضطجاع ؛ ولهذا لم يقل: مضطجعين،

ولكن يقول جل شأنه : ﴿ وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ وهى شبه جملة فى محل نصب على الحال دلت على تخلل الذكر وهم على جنوبهم ، لا على مداومته واستمراره كالحالتين السابقتين .

ثم ينزهون الله تعالى عند تفكرهم فى خلق السموات والأرض فيقولون : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ ﴾ ، تنزية لله تعالى ، ونفى صدور العبث والباطل على شموله وعمومه .. فالنكرة فى سياق النفى تعم .. و(بَاطِلًا) منصوب على أنه مفعول من أجله ، والباطل هنا فاعل بمعنى المصدر مثل العاقبة والعافية ، والمعنى ما خلقتهما عبثا ، ويجوز أن يكون نعتا لمصدر محذوف : أى خلقا باطلا ، وفى ذلك إيجاز [1] .

وهم يؤكدون نفى الباطل عن الله سبحانه وتعالى فى تفكرهم ، فأتوا باسم الإشارة (هَٰذَا) الدال على التعظيم ، إشارته له على الضمير مثلا : خلقتهن ؛ ليكون نفى الباطل بدليله وتعليله ، أى كأنهم قالوا : كيف هذا الخلق العظيم والصنع البديع أن يكون باطلا ؟!

وختمت الآية الكريمة بقوله سبحانه : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ لأنه قد ظلم ظلما شنيعا ، ما بعده ظلم .. ولهذا لم يكن لهذا الإنسان نصير ما فالنفى على شموله لوقوع النكرة فى سياق النفى،ثم أكد هذا بدخول (مِنْ) على النكرة ، وقدم (لِلظَّالِمِينَ) للتنبيه إلى ظلمهم ، وكأنه تعليل مقدم أولا لعدم وجود الناصر فهو انتفاء لوجود .. انتفى النصر لوجود الظلم .

ثم دعاء وابتهال إلى الله جل شأنه ، يسبقه مدح وثناء على رسول الله ﷺ : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ ... ﴾ .

فتفخيم شأن المنادى ، وإعلاء قدره من تنكيره [2] ، هذا بالإضافة إلى دلالة الجمع بين: المنادى وينادى من تفخيم وموسيقى لوقوع الجناس بينهما ،

(١) التبيان فى إعراب القرآن ، ١/١٦٢ .

(٢) البيضاوى ٣ / ٩١ ، وتفسير أبى السعود ٢ / ١٣٢ ، وروح المعانى ٤ / ١٦٣ .

وقد ذكر النداء مطلقا ثم مقيدا بالإيمان تفخيما لشأن المنادى ؛ لأنه لا منادى أعظم من مناد ينادى للإيمان .

وذلك أن المنادى إذا أطلق ذهب الوهم إلى مناد للحرب، أو لإغاثة المكروب أو لكفاية بعض النوازل ، أو لبعض المنافع ، فإذا قلنا : ينادى للإيمان ، فقد رفعنا من شأن المنادى وفخمناه [١] .

ثم جاءتهم الاستجابة من(رَبُّهُمْ)لدعائهم فهو لا يضيع عمل عامل ما، من ذكر ما ، أو أنثى ما ، على العموم والشمول . . وهذا يدل على عدل الله تعالى المطلق ، لا يضيع عنده شيء مهما قل . . ويدل على المساواة فى الجزاء والثواب (مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ) وشبه الجملة هذه لبيان (عَامِلٍ) وهى تفصيل بعد إجمال يوحى بالعدل والمساواة كما ذكرنا .

﴿ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ وهذا الجزاء بلغ من العظمة والرفعة ما لا يدرك كنهه ولا يقدر قدره ، ولهذا نكر (ثَوَابًا) وأطلقه ثم قيده بشبه الجملة (مِّنْ عِندِ اللَّهِ) إظهارا لمزيد العظمة والفخامة [٢] .

و(ثَوَابًا) مصدر ، وفعله دل عليه الكلام المتقدم ، لأن تكفير السيئات إثابة فكأنه قال : لأثيبنكم ثوابا ، وفى ذلك إيجاز [٣] .

يقول الله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-١١] .

---

(١) الكشاف ١ / ٤٥٥ .

(٢) محمد رشيد رضا ـ تفسير المنار ـ مصر ـ دار المنار (ط ٤) سنة ١٩٥٤ /٤ /٣١٠ .

(٣) التبيان فى إعراب القرآن ١/ ١٦٣ .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُون ﴾ إخبار من الله تعالى بفلاح المؤمنين يفيد مدحهم وتعظيمهم ، مؤكدا ذلك بـ (قَدْ) الدال على التحقيق ، وآثر هذا الفعل لأنه يعنى الفوز والبقاء والنجاة ، وحى على الفلاح ، أى : أقبل على النجاة [1]، وهو نداء الصلاة الذى لبوه ؛ ولذلك بدأ بأول أسباب فلاحهم وهو : (الصلاة) .

﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ فبدأ بتعظيمهم عن طريق اسم الموصول (الَّذِينَ) الدال على ذلك ، ثم ثنى بضمير الفصل (هُمْ) لتخصيصهم بذلك العلى ، وتلك الفخامة . .

ثم قال : (فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ) وفى التنكير دلالة على قوة هذا الخشوع وفخامته والإخلاص فيه وأثر الخشوع على الخوف ، فلم يقل: خائفون مثلا ؛ لأن الخشوع حالة قلبية تعنى الخشية لله سبحانه والخشوع والتذلل لعظمته مع السكينة إليه ، والخشوع لا يستعمل على حقيقته إلا فى جانب الله تعالى . .

وقد أضاف الصلاة إليهم فقال : (فِي صَلاتِهِمْ) لأن الصلاة دائرة بين المصلى والمصلى له ، فالمصلى هو المنتفع بها وحده ، وهى عدته وذخيرته فهى ، صلاته وأما المصلى له فغنى متعال عن الحاجة إليها والانتفاع بها [2].

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُون ﴾ وهذا الوصف تابع لوصفهم السابق بالخشوع فى الصلاة ، ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف [3] وفى ذلك مقابلة بديعية . و(مُعْرِضُون) اسم فاعل من الفعل : أعرض يدل مع التنكير على الاستمرار فى الإعراض عن اللغو . . وكلمة (مُعْرِضُون) تعطى تجسيما للغو ، الذى بدا وكأنه شىء حسى يعترض المؤمنين .

---

(١) مختار الصحاح ص ٥١٠ .
(٢) الكشاف ٣ / ١٧٥ .
(٣) المصدر السابق نفسه .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُون ﴾ جاء هنا بحزف الإلصاق (اللام) ، ليدل على تمسكهم بهذه الفضيلة التى يهملها كثير من الناس ، وهم مؤدون لها دون انقطاع ، فهى صفة حالية ثابتة لهم ،دل على ذلك التنكير ، ومجيئه على وزن فاعل كما أن التنكير فى هذه الكلمات : (خَاشِعُونَ) ، (مُعْرِضُونَ) ، (فَاعِلُونَ) ، (حَافِظُونَ) ، (رَاعُونَ)، يفيد عدم الحصر فى هذه الصفات.. فالخشوع ليس مقصورا على الصلاة ، بل فى سائر العبادات والقربات ، والإعراض ليس مقصورا على لغو الكلام ، بل الأفعال أيضا ، والحفظ لا يقتصر على الفروج ، بل حفظ الجوارح التى يتأثر الفرج بها ، أى من غض السمع والبصر عن المثيرات .. وهكذا .

كما أن اتفاق الفاصلة فى هذ الكلمات ـ فاصلة النون ـ قد أحدث موسيقى صوتية تزكو بها النفس ، ويتهيأ بها الذهن .. هذا بالإضافة إلى الموسيقى الناتجة من حسن تقسيم هذه الآيات ، التى جاءت مرتبة الأفكار ، موزونة الكلمات .

وقد أفاد التكرار فى (وَالَّذِينَ هُمْ) المدح والتعظيم ، مع إفادة القصر المستفاد من الضمير (هُمْ) ..

وقد استحق هؤلاء المؤمنون وصف الله تعالى فى قوله :﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ . لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور: ٢٧ ، ٢٨] .

فبدأ بتعظيمهم عن طريق التنكير فى (رِجَالٌ)، وحذف المبتدأ للاختصار، والتقدير : المسبح رجال ، وقيل: التقدير : فيها رجال ، أو (رِجَالٌ) مرفوع بفعل محذوف ، كأنه قيل: من يسبحه ؟ فقال: رجال ، أى يسبحه رجال [1]،

(١) التبيان فى إعراب القرآن ١٥٦/١ .

والحذف للاختصار فى كل ما سبق .

وتنكير التجارة والبيع ، ومجيئهما فى سياق النفى ، يفيد العموم والشمول ، أى بكل أنواعهما وأشكالهما . . وفى ذلك مدح وتفخيم لهؤلاء الرجال .

وقال الزمخشرى ـ رحمه الله ـ : « والتجارة فى الآية ، إما أن يراد بها صناعة التاجر ، أى لا يشغلهم نوع من هذه الصناعة ، ثم خص البيع لأنه فى الإلهاء أدخل من قبل التاجر إذا اتجهت له بيعة رابحة ، وهى طلبته الكلية من صناعته ،ألهته ما لا يلهيه شراء شىء يتوقع فيه الربح فى الوقت الثانى ؛ لأن هذا يقين وذاك مظنون ، وإما أن يسمى الشراء تجارة ، إطلاقا لاسم الجنس على النوع » [1] .

وهذا تكلف ظاهر ، لا حاجة فيه ، فذكر البيع بعد التجارة ، من باب عطف الخاص على العام ، فالتجارة أعم وأشمل من البيع ، والبيع يأتى بمعنى الشراء أيضا ، فهو من الأضداد [2] .

ومن هذا أيضا قوله تعالى فى نفس الآية : (عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ) فهو ذكر للخاص بعد العام أيضا على سبيل الإطناب تنويها بشأنه ،فالصلاة من ذكر الله .

﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ إنه يوم عظيم هائل ، كما دل تنكيره وإطلاقه ثم وصفه بتقلب القلوب والأبصار فيه ، وذلك على سبيل الاستعارة الموحية بطبيعة اليوم وشدته ، وتقديم (فيه) على القلوب والأبصار لبيان مدى فظاعة ذلك اليوم وشدته ، وهى تعنى الظرفية . . وجمع بين القلوب والأبصار ليظهر أثر ذلك اليوم على الظاهر والباطن ، فنسأل الله العافية .

(١) الكشاف ٣ / ٣٤٣ .

(٢) مختار الصحاح ص ٧١ .

يقول الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا . وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا . وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا . وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا . إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا . وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا . وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا . أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا . خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٣ ـ ٧٦] .

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ) بدأ بتشريفهم وتكريمهم بهذه الإضافة الجليلة . . . وفى قوله :(عِبَادُ) وليس (عبيد) تشريف ومدح وثناء ، و(الرَّحْمَنِ) من أسماء الله وصفاته التى لا يشترك فيها معه أحد ، وهو اسم مشتق من الرحمة على وجه المبالغة . و(الرَّحْمَنِ) أعم وأشد مبالغة فى الرحمة من (الرحيم) لعمومها فى الدارين لجميع خلقه ،و(الرحيم) خاصة بالمؤمنين ، ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (١) [الأحزاب : ٤٣].

﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ مدح وتعظيم بوصفهم باسم الموصول (الَّذِينَ) و(هَوْنًا) حال تلزم التنكير ، وهى جملة خبرية للمدح والثناء . . ويجوز أن يكون (هَوْنًا) صفة للمشى ، أى : مشيا هينا ، وفى هذا مبالغة فى تواضعهم ؛ لأن وضع المصدر موضع الصفة مبالغة .

---

(١) ابن كثير ـ مختصر تفسير ابن كثير ـ اختصار وتحقيق : محمد على الصابونى ـ بيروت ـ دار القرآن الكريم (ط ٧) سنة ١٩٨١م .

﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ سلاما هنا مصدر ، والتنكير يفيد الإطلاق والتعظيم ، أى نتسلم منكم تسلما ، أقيم السلام مقام التسلم [1] ، ويجوز أن يكون (قَالُوا) بمعنى (سلموا) ، فيكون سلاما مصدره [2] .

﴿ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ بيان لكثرة السجود والقيام ، وإتقانهما ، فالتنكير للتعظيم والتكثير ، وفى ذلك صياغة لفظية رائقة من حيث البناء والتركيب والتنكيز . . وبينهما طباق لفظى يعطى قوة فى المعنى ، وجرسا موسيقيا .

﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾، غراما : الشر الدائم والعذاب، وقال أبو عبيدة: أى هلاكا ولزاما لهم [3] . ومنه الغريم : لإلحاحه ولزامه [4] . . فاللفظ مع التنكير يدلان على التفخيم والتهويل اللذين انعكسا على المؤمنين فى حالهم ودعائهم . .

ومما زاد من تحقق وقوع هذا الهلاك الملحّ ، والخسران اللازم دخول الفعل الماضى (كَانَ) على ذلك اللفظ المسبوق بداية بالتوكيد الحرفى (إِنَّ) . .

وقد تكرر العذاب (عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا ...) لمزيد من الروع والذعر وتربيه المهابة والخوف فى النفوس ، وكأن هذا إجابة لمن سأل : لماذا يصرف عنكم عذاب جهنم ؟ فتكون الإجابة (إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ...) وفى هذا الدعاء والتضرع (رَبَّنَا) بيان لمدى شدة العذاب ، وخوفهم منه ، وفى قوله تعالى ﴿ عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ مجاز عقلى ، حيث أسند العذاب إلى جهنم ، وهو من الله فى الحقيقة .

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ وهو أسلوب ذم فى حكم : (بئست)

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٩١ .
(٢) التبيان فى إعراب القرآن ٢/ ١٦٥ .
(٣) مختار الصحاح ص ٤٧٣ .
(٤) الكشاف ٣ / ٢٩٢ .

والمخصوص بالذم محذوف لمزيد من الهول والتفخيم ، والتقدير : ساءت مستقرا ومقاما هى ، وهذا الحذف مع تنكير المستقر والمقام يشعل زلزلة القلوب وشخوص الأبصار من فرط الخوف والذعر . .

وفى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا . إِنَّهَا سَاءَتْ ... ﴾ تفصيل بعد إجمال فى قوله ﴿ عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ .

و(مُسْتَقَرًّا) حال أو تمييز ، وهذا يوحى بأن هذا السوء يشمل ويعم كل مستقر ومقام فيها ، حتى صارت مشتعلة بالسوء وجمع بين المستقر والمقام لوقوع السوء فى المكان ، وما أعد فيه من وسائل العذاب والتنكيل .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ القوام : العدل بين الشيئين ، وهو التوسط بين الإسراف والتقتير ، والتنكير يفيد المدح والثناء ، ويزيده قوة وقوعه فى سياق التضاد اللفظى . . وفى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ بعد قوله : ﴿ لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾ إطناب يزيد المعنى إيضاحا وتوكيدا . .

و(قَوَامًا) خبر كان ، حذف اسمه ، والتقدير : وكان الإنفاق [1] ، وذلك للاختصار لقيام القرينة عليه ، وفى ذلك إيجاز .

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ فالتنكير فى (إِلَهًا آخَرَ) للعموم ، والشمول فالنكرة فى سياق النفى تعم ، والنفى بـ (لاَ) يفيد الحاضر والمستقبل ، وذكر المتعلق (مَعَ اللَّهِ) قبل (إِلَهًا آخَرَ) يفيد وجوب التوحيد ، وتفرد الله تعالى بالألوهية ، وكأنه توبيخ وتعريض بمن يشرك بالله .

وتنكير (أَثَامًا) فى قوله تعالى : ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ للتهويل والتفخيم ، والأثام اسم للمصدر مثل السلام والكلام[2]، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه (أياما) ،

(١) التبيان فى إعراب القرآن ٢/ ١٦٥ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

أى شدائد [1] وربما عبر العرب عن الشدة باليوم ، يقال : يوم أيوم ، كما يقال : ليلة ليلاء [2] .

وقوله تعالى : ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ بعد قوله : ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ تفصيل بعد إجمال ؛ لزيادة التقرير والإيضاح وتنكير (مُهَانًا) مع معناها وإعرابها حال لبيان هول وشدة الإهانة ، والحالة التى تلازمه .

وتنكير (عَمَلاً) فى قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا ﴾ يفيد الإطلاق والعموم ، يعنى : أى عمل كان ، ولكن قيده بالوصف (صَالِحًا) ، ولو عرف لانصرف الذهن إلى عمل بعينه ، أو إرادة جميع الأعمال الصالحة ، وهذا ما لا يطيقه إنسان .

والجزاء : ﴿ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ أى حسنات كثيرة العدد ، عظيمة الشأن ، كما دل التنكير ، وبين (سَيِّئَاتِهِمْ) و(حَسَنَاتٍ) طباق لفظى يقوى المعنى ويزيده إيضاحا .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ تذييل لما سبق ذكره وذلك لمزيد من التقرير والإيضاح والتوكيد .

وتنكير (كِرَامًا) مع تعريف (الزُّورَ) و(اللَّغْوِ) فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ دلالة على أنهم إذا قابلوا جنس الزور واللغو ، قابلوه بأن كانوا (كِرَامًا) على الإطلاق والتفخيم .

وهذا لأنهم : ﴿ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ نفى عنهم عموم الصمم والعمى ، كما دلت النكرة الواردة فى سياق النفى ، وخصهما لأنهما أدوات التعقل والفهم فى الإنسان .. وفى قوله : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ استعارة بديعية ، أى لم يتغافلوا عن قوارع النذر

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٤ .

(٢) مختار الصحاح - ص ٧٤٠ .

حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع ولا يبصر، وهذا من أحسن الاستعارات[1].

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

قال الزمخشرى ـ رحمه الله ـ : « فإن قلت : لم قال : (قُرَّةَ أَعْيُنٍ) فنكر وقلل ؟ قلت : أما التنكير فلأجل تنكير القرة ، لأن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه ، كأنه قيل : هب لنا منهم سرورا وفرحا ، وإنما قيل : (أَعْيُنٍ) دون (عيون) : لأنه أراد أعين المتقين ، وهى قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم . قال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣]

ويجوز أن يقال فى تنكير (أَعْيُنٍ) أنها أعين خاصة ، وهى أعين المتقين [2].

وهذا كلام غير دقيق ، وقياس مجانب للصواب على الآية التى ذكرها ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ وقد قال الإمام أحمد فى (الانتصاف على الكشاف) قولا أكثر دقة ، يقول :

« والظاهر أن المحكى كلام كل أحد من المتقين ، فكأنه قال : يقول كل واحد منهم : اجعل لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، وهذا أسلم من تأويله، فإن المتقين وإن كانوا بالإضافة إلى غيرهم قليلا إلا أنهم فى أنفسهم على كثرة من العدد ، والمعتبر فى إطلاق جمع القلة أن يكون المجموع قليلا فى نفسه لا بالنسبة والإضافة ، والله تعالى أعلم » [3] .

و(إِمَامًا) بالتنكير والإفراد للتفخيم ، وهو واحد اكتفى به عن أئمة ، كما قال تعالى : ﴿ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ [غافر : ٦٧] ، أو هو مصدر مثل : قيام ، وصيام ، فلم يجمع لذلك ، والتقدير : ذوى إمام [4].

---

(١) صفوة التفاسير ٢ / ٣٧٢ .

(٢) الكشاف ٣ / ٢٩٦ .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) التبيان فى إعراب القرآن ٢ / ١٦٥ .

وفى تنكير (تَحِيَّةً وَسَلامًا) من التفخيم والرفعة ما لا يخفى ، وربما حمل النوعية أيضا أى تحية وسلام من نوع مخالف لتحية وسلام الدنيا . .

وفى قوله تعالى : ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ مقابلة جميلة مع قوله تعالى قبل ذلك فى وصف النار : ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ .

والضد يظهر حسنه الضد

يقول تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح :٢٩] .

فالتنكير والجمع فى (أَشِدَّاءُ) و(رُحَمَاءُ) يفيد الفخامة والقوة ، وبينهما طباق يظهر المعنى فى وضوح وقوة .

والبناء اللغوى ، والتنكير فى (رُكَّعًا) و(سُجَّدًا) يفيد المبالغة فى الحدث مع الفخامة والإتقان .

و(فَضْلاً) أى لا حد لكثرته ، ولا إدراك لعظمته، فهو (مِّنَ اللَّهِ)؛ ولهذا توسطت شبه الجملة هذه بين الفضل والرضوان . .

ثم يقدم صورة بيانية جميلة لهؤلاء المؤمنين بهذا التشبيه الرائق (وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ . . .) . .

وجزاؤهم عند الله : (مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) واستعان السياق بالتنكير والتنوين ليدلا على أن المغفرة والأجر لا حدود لهما فى الكم والكيف لأنهما من الله تعالى .

* * *

الفصل الثالث

التنكير وآيات الكافرين

التنكير وآيات الكافرين

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ . خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ . مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ . صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ . أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٦ ـ ١٩] .

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ غشاوة هائلة من نوع غير متعارف للناس، وهو غطاء التعامى عن آيات الله، ولهذا نكرها [1] . وأخرها لإثارة الذهن ولفت الانتباه إلى خطورة أثرها وهولها رغم أنها غير محسوسة للعيان .

وبذلك تكون مراكز التعقل الحسى والمعنوى قد تعطلت لديهم ، فصاروا

(١) الكشاف ١ / ٥١ .

عميا فى بصرهم وبصيرتهم ؛ ولهذا خص الختم بالقلوب والسمع .. وخص البصر بالغشاوة ، وقدم عليه القلوب والسمع لشرفهما وعلو قدرهما وأهميتهما ..

وأسند الختم إلى الله تعالى ؛ لينبه على أن هذه الصفة فى فرط تمكنها وثبات قدمها كالشىء الخلقى غير العرضى. وقال الزمخشرى ـ رحمه الله ـ : « يجوز أن يستعار الإسناد فى نفسه من غير الله لله ، فيكون الختم مسندا إلى اسم الله تعالى على سبيل المجاز ، وهو لغيره فى الحقيقة » (١) .

ورده العلامة ابن كثير وقال : هذا ضعيف جدا وهو من اعتزاله .. فالله قد ختم على قلوبهم وفاقا على تماديهم فى الباطل (٢) وهو الصحيح إن شاء الله .

وفى تكرير الجار فى قوله ﴿ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ دلالة على شدة الختم فى الموضعين ..

ووحد السمع لأنه مصدر فى أصله ، والمصادر لا تجمع (٣) .

ولما كانوا بهذه الحالة من الكفر والعصيان أصدر الله تعالى ضدهم هذا الحكم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وهو نوع من العذاب لا نعرف عنه إلا أنه عظيم ، وهذا الوصف قلل من امتحاض النكرة ...

وقدم شبه الجملة (لَهُمْ) ليفيد أن هذا العذاب مقصور عليهم ، محصور فيهم ، مختص بهم دون غيرهم .. ولذلك كان عذابا عظيما ، وفى تأخيره تربية للمهابة وإدخال للرعب .

ثم يمضى التنكير من خلال السياق والتركيب يرسم لنا صورة أخرى من

(١) البيضاوى ١ / ٢٩٨ ، المنار ١ / ١٤٧ ، والإيضاح ص ٢٩ .
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١ / ٣٢ .
(٣) الكشاف ١ / ٥١ .

أهل العصيان وهم المنافقون . .

يقول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ .

عدل من الفعل (وما آمنوا) إلى الاسم (وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ) لإخراج ذواتهم من عداد المؤمنين ، وأكده بالباء للمبالغة فى نفى الإيمان عنهم ، فقد خالف قولهم فعلهم ، فهم ليسوا بمؤمنين ، وفى تنكير الخبر إرادة لعدم الحصر .

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ هو مرض النفاق [1] ، استعمل على سبيل المجاز حيث استعير المرض لما ران على قلوبهم من جهل وسوء عقيدة [2]. ولهذا نكره وأخره ، مما يدل على شدته وهوله ومخالفته للمرض الحسى المعهود ، ولو عرف لانصرف الذهن إليه، وإعادة (مَرَضاً) منكرا لكونه مغايرا للأول ، والمعنى : فى قلوبهم مرض النفاق فزادهم الله مرض الضلال .

وقال الزمخشرى ـ رحمه الله ـ عن قوله تعالى :﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً ﴾ : « إنه كلما أنزل الله تعالى على رسوله الوحى ، فسمعوه كفروا به ، فازدادوا كفرا إلى كفرهم ، فكأن الله هو الذى زادهم ما ازدادوه إسنادا للفعل إلى المسبب له ، كما أسنده إلى السورة فى قوله تعالى : ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ » [3] .

وهذا القول غير صحيح ؛ لأنه ينفى فعل الله تعالى ، وهذا مذهب المعتزلة ـ الذى ينتمى إليه ـ فى مثل هذه الآيات من القرآن الكريم ، وقد سبقت الإشارة لمثل ذلك عند الكلام عن قوله تعالىٰ : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ ﴾ .

---

(١) تفسير أبى السعود ١ / ٤٢ .
(٢) إعراب القرآن . وبيانه ١ / ٣٣ .
(٣) الكشاف ١ / ٦٠ .

ثم إخبار من الله يفيد الوعيد : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُون ﴾ وهو نوع من العذاب مؤلم وشديد يثير الرعب والفزع ، كما يفيد التنكير التفخيمى ، والوصف والتأخير ، فالعذاب محصور فيهم ، مقصور عليهم .

وقد استخدم السياق صفة العظمة للعذاب مع الكافرين فيقول تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ واستخدم صفة الألم للعذاب مع المنافقين فيقول جل شأنه : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وقد تفننت سياقات الآيات الكريمة فى ذلك ، فى غير موضع . .

أحيانا يقول سبحانه :﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وأخرى يقول سبحانه : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . .

وثالثة يقول تعالى : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيد ﴾ .

ورابعة يقول جل شأنه : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

وهى مراتب وأحوال لأهل النار ـ عافانا الله تعالى ـ فلأنهم سارعوا إلى المعاصى والجحود فلهم عذاب عظيم ، فالمسارعة تكون لأمر هائل . .

وهذا العذاب هائل شديد ، يأتى عليهم كما تأتى النار على الحطب ، وهو يصيبهم بالألم الموجع لأنهم خدعوا أنفسهم واشتروا الكفر بالإيمان ، والمخدوع أو المشترى المغبون يتألم .

ثم هم مع ذلك فى عذاب يهينهم ويذلهم ، وهم الذين طلبوا العزة والكرامة [١].

ونلاحظ أن السياق عندما يحكى كلام هؤلاء المنافقين يقول سبحانه : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ بتنكير (مُصْلِحُونَ) .

وعندما يرد عليهم زعمهم هذا يقول جل شأنه : ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُون ﴾ بتعريف (الْمُفْسِدُونَ) .

(١) تفسير المنار ٤ / ٢٥٣ .

فالتنكير فى (مُصْلِحُونَ) ينبئ عن انطماس بصيرتهم، وانقلاب عقولهم .. فهم مقيمون على الباطل ، ولكنهم يرون من أنفسهم إصلاحا عظيما .. بل إنهم لم يقصروا أنفسهم على الإصلاح فقط ، ولكن أرادوا بأنهم ـ مع هذا الإصلاح ـ مهتدون ، وعاقلون ، وراشدون .. إلى غير ذلك .. ولهذا كانت بلاغة رد السياق جاءت بالتعريف لإبطال كل ما سبق فيقول سبحانه : ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ فقصر الإفساد كله عليهم ، وحصره فيهم وحصرهم فيه فلم يكن هناك من هو أفسد منهم ، فالتعريف بـ : (ال) جمع جنس الفساد المعهود كله فيهم ، وفى ذلك تأكيد ..

وسبق ذلك التأكيد بثلاث توكيدات ، فبدأ بأداة الاستفتاح (ألا) لإثارة الانتباه ، ثم أكد بـ (إن) وفصل بالضمير (هم) ليؤكد ويقصر الإفساد عليهم ، ويحصرهم يه ، ويحصره فيهم ، وذلك فى مقابلة قصر الإصلاح على أنفسهم فى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ وهو من نوع قصر الموصوف على الصفة .. أى : نحن مصلحون ليس إلا ..

ثم يمضى السياق يبرز حال هؤلاء المنافقين والكافرين ، وما هم فيه من تحير واضطراب .. فيقول تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾ .

ضرب المثل ـ والله أعلم ـ للفعل لا لأعيان الرجال ، وإنما هو مثل للنفاق ، قال : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ... ﴾ ولم يقل : الذين استوقدوا [1] ، وهو كقوله تعالى فى آية الأحزاب : ﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ [الاحزاب : ١٩] .

فهم يطلبون الهداية والنور من أحقر طريق كالذى استوقد (نارًا) عظيمة لتنكيرها ولكنها لا تقوى على الإضاءة .. لذلك لا تلبث أن تنطفئ، وهو

(١) الفراء ـ معانى القرآن ـ تحقيق : أحمد يوسف نجاتى ومحمد على النجار ـ القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ط (٢) سنة ١٩٨٠م ، ١٥/١ .

انطفاء مازعموا من إيمان ، ويبقون فى ظلمات دامسه داجية كما ينبئ الجمع والتنكير .

ثم بين انطماسهم بالكلية بقوله جل شأنه . ﴿ لا يُبصِرُون ﴾ لهذا فهم قد بلغوا أقصى درجات الغباء والانحطاط ، فصدر الآية بقوله سبحانه ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ...﴾ فركب أداتين للتشبيه مع بعضهما ليصور هذه حالة المنحطة الحقيرة ، وهذا من أصدق تشبيه وأحسنه وأقربه [١] .

وفى ذلك تشبيه تمثيلى ، يشبه المنافق بالمستوقد للنار ، وإظهاره الإيمان بالإضاءة وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار .

والعلامة ابن القيم رحمه الله تعالى يقول : ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ ولم يقل : ذهب الله بنارهم ، مع أنه مقتضى السياق ليطابق أول الآية (استوقد نارا) فإن النار فيها إشراق وإحراق ، فذهب الله تعالى بما فيها من الاشراق وهو « النور » وأبقى ما فيها من الإحراق وهو (النارية) !! [٢].

ويقول سبحانه أيضا : (بنُورِهِمْ) ولم يقل جل شأنه ـ بضوئهم ، لأن النور أعم من الضوء ، إذ يقال على القليل والكثير [٣]، والضوء زيادة فى النور ، فلو قيل : ذهب الله تعالى بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل . . ثم إنه وحد النور بقوله سبحانه : ﴿ ذهب اللَّهُ بنورهم ﴾ ثم يقول جل شأنه : ﴿ وتركهمْ فِي ظُلُماتٍ ﴾ فجمعها، إن الحق واحد هو صراط الله المستقيم، الذى لا صراط يوصل سواه، بخلاف طرق الباطل فإنها متعدده ومتشعبة ؛ ولهذا أفرد سبحانه (الحق) وجمع (الباطل) فى آيات عديدة[٤]

(١) ابن أبى الإصبع ـ بديع القرآن ـ تحقيق : د . حفنى شرف ـ القاهرة ـ دار نهضة مصر ـ ط (٢) بدون تاريخ ـ ص ٦١ .

(٢) صفوة التفاسير ١ / ٤٠ .

(٣) السيوطى ـ الإتقان فى علوم القرآن ـ تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ـ القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب ـ ١٩٧٥م ، ٣/٢٦٤ .

(٤) الكشاف ١ / ٧٥ .

وهم : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُون ﴾ فقد بلغوا درجة متناهية الفظاعة من الصمم والبكم والعمى ؛ كما يدل التنكير ، ويدل أيضا على أنه من نوع مخالف . .

وحذف المسند إليه ليدل على حقارتهم وانحطاط شأنهم ثم أكد بذكر الضمير : (فَهُمْ) . . فبسبب ماوصلوا إليه من سوء وفساد لا يستطيعون الرجوع إلى الحق فقد تعطلت حواس التعقل ومراكز التبصر لديهم .

ثم يمضى المشهد يصور لنا صورة أخرى لضلالهم وتحيرهم فهم كالسكارى لا يدرون ماذا يفعلون . فتارة يجعلون أصابعهم فى آذانهم وتارة أخرى يقومون . . وتارة ثالثة يمشون .

يقول تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ . يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ... ﴾ قد أصابهم صيّب من نوع شديد هائل ، كما ينبئ التنكير والبناء والتركيب . . فقد علاهم من سمائهم، فكان مركزا عليهم ، فهو لم يكن مطرا عاديا للرحمة، وإنما كان مطر عذاب ، وكأن السماء أمطرت عليهم (ظُلُمَاتٌ) داجية ، و(رَعْدٌ) قاصف ، و(بَرْقٌ) خاطف ، مما يؤذن بالشدة والهول ؛ ولهذا جاءت هذه الكلمات نكرات . .

والصيّب تشبيه لدين الإسلام ؛ لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات ، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق ، ومما يصيب الكفرة من الأفزاع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق . .

ووصف الصيب بشبه الجملة (من السماء) مع أن الصيب لا يكون إلا من السماء ، لأنه جاء بالسماء معرفة ، فنفى أن يتصوب من السماء ، أى

من أفق واحد من بين سائر الآفاق ، لأن كل أفق من آفاقها سماء [1] .

و(صيِّب) فعيل صفة مشبهة تفيد الثبوت والدوام . .

وكان رد الفعل عندهم بأنهم جعلوا ﴿ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ ﴾ . . وذلك إمعانا فى الحذر ، وكأنهم لا يكتفون بوضع أطراف أصابعهم حتى صاروا يمعنون فى إدخالها بالكلية طلبا للنجاة من هذه الصواعق المتلاحقة الهائلة .

فهو مشهد حسى يزخر بالحركة ويرمز لحالة نفسية ، ويجسم صورة شعورية ، وهو طرف من طريقة القرآن العجيبة فى تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس [2] .

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٧١] .

لا يسمعون من الدعاء والنداء إلا مطلق الصوت دون فهم المراد . . ولهذا نكرهما ويدل ذلك على شدة الإبهام وخفاء الحق عن عقولهم .

فهم يشبهون الدواب : (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا) وفيه تشبيه مرسل ومجمل . . . مرسل لذكر الأداة . . ومجمل لحذف وجه الشبه . . فقد شبه الكفار بالبهائم التى تسمع صوت المنادى دون أن تفقه كلامه وتعرف مراده [3] .

ولذلك يزيد الأمر إيضاحا وتفصيلا ، فيصفهم بهذا الوصف .

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُون ﴾ صم . . بكم . . وعمي . . تشبيه بليغ ، حذف أداة التشبيه ووجه الشبه إمعانا فى تحقيرهم ، أى هم كالصم فى عدم سماع الحق وكالعمى وكالبكم فى عدم الانتفاع بنور القرآن . . ولهذا نكرها

(١) الكشاف ١ / ٧٥ .
(٢) الظلال ١ / ٤٦ .
(٣) صفوة التفاسير ١ / ١١٦ .

جميعا ليدل على شدتها واستحكامها ، ونوعها المخالف للصمم والبكم والعمى المعهود . .

﴿ فَهُمْ لا يَعْقِلُون ﴾ خالف السياق هنا الآية السابقة فى تصوير المنافقين حيث قال : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُون ﴾ أى لا يرجعون عما هم فيه من نفاق وعناد رغم سطوع الحق . . أما هنا فيقول جل شأنه : (لا يَعْقِلُون) لأن سياق الآيات يتحدث عن التنديد بالتقليد الأعمى فى أمر العقيدة ، والنقل بلا عقل ولا إدراك يقول سبحانه قبلها مباشرة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ .

فلهذا يقول جل شأنه : (لا يَعْقِلُون) . . ويرسم لهم صورة زرية تليق بهذا التقليد وهذا الجمود ، صوت البهيمة السارحة التى لا تفقه ما يقال لها ، بل إذا صاح بها راعيها سمعت مجرد صوت لا تفقه ماذا يعنى ، بل هم أضل من هذه البهيمة ، فالبهيمة ترى وتسمع وتصيح ، وهم صم بكم عمى . . وهذه منتهى الزراية بمن يعطل تفكيره [1] .

يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦٤] .

هذا مشهد واحد للمرائين يقابل مشهدًا آخر للمخلصين فى الآيات اللاحقة بتلك الآيات التى سبق الحديث عنها عند الكلام عن آيات المؤمنين وصفاتهم . .

قلب صلد ، يغطى هذه الصلادة بغشاء من الرياء ؛ ولذلك يمثله بحجر فيقول سبحانه : ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ﴾ صفوان . . حجر يرمز للقسوة

(١) الظلال ١ / ١٥٥ .

والجمود وعدم الخصوبة .. عليه شيء قليل خفيف من التراب [1].. وهذا معنى التنكير فى كل منهما ..

فكما أن هذا الحجر قاس متحجر . فكذلك قلوب هؤلاء قاسية متحجرة .. وكما أن الطبقة الترابية التى تعلوا الحجر خفيفة وضعيفة تزول بالمطر سريعا، فكذلك أيضا حجاب الرياء والنفاق ضعيف لا يلبث أن يزول فاضحا أصحابه ..

وفى هذا تشبيه تمثيلى لأن وجه الشبه منتزع من متعدد ..

﴿ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾ هطل عليه مطر عظيم الغزارة [2] ، فتركه أملس عظيم الملوسة .. وهذا معنى التنكير الذى جاء فى سياق موسيقى يوحى بسرعة التحول .. (فَأَصَابَهُ .. فَتَرَكَهُ) فيه السرعة المصحوبة بالشدة والقوة . فالمطر أوله رش ثم طش ثم نضح ثم هطل ثم وبل والمطر الوابل الشديد الغزارة [3] .

وهم : ﴿ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾ شيء ما من ثواب أو نفع لهم كثيرا أو قليلا .. لوقوع النكرة فى سياق النفى .

ويقول سبحانه : ﴿ لَا يَقْدِرُون ﴾ ، بعد قوله جل شأنه : ﴿ كَالَّذِي يُنفِق ﴾ لأنه أراد بالذى ينفق الجنس أو الفريق الذى ينفق ، ولأن « من » و « الذى » يتعاقبان ، كأنه قليل : كمن ينفق [4] .

ثم يمضى السياق سائقا مشهدا آخر يبين فيه نهاية المن والأذى .

يقول تعالى : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ

---

(١) روح المعانى ٢ / ١٣٩ .

(٢) تفسير أبى السعود ١ / ٢٥٩ .

(٣) الثعالبى ـ فقه اللغة وسر العربية ـ بيروت ـ لبنان ـ دار الكتب العلمية ـ بدون تاريخ ـ ص ٢٨١ .

(٤) الكشاف ١ / ٣١٢ .

نارٌ فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ [البقرة : ٢٦٦] .

هذا تمثيل لمن يعمل الأعمال الحسنة لا يبتغى بها وجه الله تعالى ، فيحبط عمله ، ويتحسر كصاحب هذه الجنة المحترقة ، ونكرها لتفخيمها ، وهى واجبة التأخير عن الخبر (لهُ) لذلك .

وقوله تعالى : ﴿ مِن نَّخيلٍ وأعناب ﴾ بعد ﴿ جَنَّةٌ ﴾ من باب ذكر الخاص بعد العام ، وفى اللفظين تنكير للتفخيم والتكثير ، وقال الزمخشرى - رحمه الله - : وخصهما بالذكر لأنهما أكرم الشجر وأكثرها منافع [1] .

وفى قوله تعالى : ﴿ لَهُ فيها من كُلِّ الثَّمرات ﴾ بعد قوله : ﴿ مِن نَّخيلٍ وأعنابٍ ﴾ إجمال بعد تفصيل ، وفى هذا التركيب البديع إطناب يزيد المعنى إيضاحا وقوة .

﴿ فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت ﴾ (إعصارٌ) . . (نارٌ) تنكير تفخيمى تهويلى ، يبين شدة وسرعة تحول الجنة من النضارة إلى الدمار ، وبينهما جناس لفظى يوقظ الانتباه ، وفى تقديم شبه الجملة : (فيه) على (نارٌ) مزيد من الروع . .

وهناك موسيقى قوية ساعدت على إبراز ذلك المشهد من حسن تقسيم الجمل . . ﴿ وأصابه الكبر ﴾ . . ﴿ وله ذرية ضعفاء ﴾ . . ﴿ فأصابها إعصار ﴾ . . ﴿ فيه نارٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ فاحترقت ﴾ كانت بمثابة النغمة القصيرة التى تنهى ذلك المشهد الحى .

وفى قوله : ﴿ أصابه الكبر ﴾ استعارة جميلة توضح المعنى . .

وقد تدرج التنكير من التفخيم فى الجنة والنخيل . . إلى التحقير وإظهار الضعف فى ﴿ ذريةٌ ضعفاء ﴾ إلى التهويل فى (إعصار . . نارٌ) .

وقد جاء المشهد فى محيط متناسق دقيق يعرض صورا فى محيط متجانس . .

(١) الكشاف ١ / ٣١٤ .

محيط زراعى . . صفوان عليه تراب . . فأصابه وابل . . جنة من نخيل وأعناب ، حتى الوابل والإعصار التى تكمل محيط الزراعة لم يخل منها محيط العرض الغنى المثير [1] .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٠ ، ٩١] .

يقول جل شأنه : ﴿ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ . . . ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ ﴾ ، فقال فى الأولى : ﴿ كُفْرًا ﴾ ، وفى الثانية : ﴿ وَهُمْ كُفَّار ﴾ .

وكلاهما بالتنكير للتهويل من شأن الكفر . .

ويعبر فى الأولى بالتمييز لإزالة إبهام الزيادة ، فهم لم يكونوا أحرص على شىء من حرصهم على أن يزدادوا فى كل يوم كفرا إلى كفرهم ؛ ولهذا جاءت فى سياق الجملة الفعلية الدالة على التجدد والاستمرار .

أما الثانية فجاءت النكرة فى سياق الجملة الاسمية مسندة إلى الضمير الذى خفف من تنكيرها ، فيقول سبحانه : ﴿ وَهُمْ كُفَّار ﴾ .

وذلك يدل على أنهم قد ثبتوا على الكفر وتمكنوا منه ، وتمكن منهم .

وعدل إلى صيغة المبالغة للدلالة على شدة كفرهم . . .

ولهذا يقول سبحانه فى الآية الثانية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا ﴾ بإدخال الفاء على (لَن) لأن الكلام بنى على الشرط والجزاء ، وأن سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر ، وبترك الفاء أن الكلام مبتدأ أو خبر ولا دليل فيه على التسبيب [2] .

أما فى الآية الأولى فلم تدخل الفاء على (لَن) لأن الكافر قد يتوب

(١) الظلال ١ / ٣١٠ .
(٢) الكشاف ١ / ٣٨٢ .

إلى الله تعالى ويدخل فى الإسلام قبل موته . . .

فلو كان الفداء بملء الأرض ذهبا لا يقبل منهم . ونكر (ذهبا) للدلالة على كثرته وفخامته ، حتى أنه يملأ الأرض جميعا ، ولهذا عبر بالتمييز المنصوب ، فهو [1] « مفسر لا يأتى إلا نكرة ، فخرج نصبه كقوله تعالى فى آية المائدة : ﴿ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ﴾ » .

وتوعدهم بالعذاب الأليم ، وأخره ونكره لتهويله وإدخال الذعر ووصفه بالأليم وهى صيغة مبالغة تزيد من هول العذاب . .

ثم نفى عنهم أيا من النصير ولهذا نكره وأدخل عليه (من) لتوكيد ذلك المعنى .

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٦ ، ١١٧] .

أنهم يقفون فى يوم العرض وحدهم وقد فقدوا كل نصير . . فلن يغنى عنهم من ذلك شيئا ما على عمومه وشموله كما تدل النكرة فى سياق النفى .

إن ما أنفقوا فى طلب المفاخر والثناء : (مَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ) وهو تشبيه تمثيلى يشبه ما أنفقوا بالزرع الذى أصابته ريح عاصف شديدة البرودة ـ كما دل تنكيرها ـ فدمرته وجعلته حطاما . .

وهذه الريح فيها (صِرٌّ) وهو البرد الشديد ، وأصله من الصرير الذى هو الصوت ويراد به الريح الشديدة الباردة [2] .

واللفظة ذاتها بما فيها من تنكير وتركيب كأنها مقذوف يلقى بعنف ،

---

(١) معانى القرآن ١ / ٢٢٥ .

(٢) صفوة التفاسير ١ / ٢٢٤ .

فيصور معناه . بجرسه النفاذ ، وإذا الحرث كله مدمر خراب .

ولماذا دمر الحرث ؟! لأنه ﴿ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُم ﴾ إنهم قوم فيهم الحقارة والخسة والدناءة ، كما دل التنكير ، والوصف بالجملة (ظَلَمُوا) .

فالمشهد يمر سريعا متلاحقا عنيفا . . إنها لحظة يتم فيها كل شيء . . يتم فيها الدمار والهلاك ؛ وإذا الحرث كله يباب ، ذلك مثل ما ينفق الذين كفروا فى الحياة الدنيا [1] .

قال تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة : ١٣] .

﴿ قَاسِيَةً ﴾ أى ذات قسوة شديدة ، فالتنكير للتهويل ، والياء منقلبة عن واو ؛ لأنها من القسوة [2] .

وقدم (نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ) لبيان السبب فى (لَعَنَّاهُمْ) ، وقوله تعالى : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ ... ﴾ بعد ذكر ما تقدم ، تفصيل بعد إجمال لزيادة الإيضاح والتقرير ونكر (حَظًّا) للدلالة على الفخامة والكثرة أى تركوا نصيبا جزيلا وقسطا وافيا [3] .

﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (خَائِنَةٍ) أى هائلة ومتعددة كما دل تنكيرها ، وحذف موصوفها . . وفى الظلال : « خيانة عظمى ، كثيرة متلاحقة كلما سنح الوقت وواتتهم الفرصة ، وحذف الموصوف ، وأثبت الصفة (خَائِنَةٍ) لتبقى الخيانة وحدها مجردة ، تملأ الجو ، وتلقى ظلالها وحدها على القوم » [4].

---

(١) الظلال ١ / ٤٥١ .

(٢) التبيان فى إعراب القرآن ١/٢١١ .

(٣) الكشاف ١ / ٣٢٨ ، والبيضاوى ٣ / ٢٢٥ .

(٤) الظلال ٢ / ٨٥٩ .

والتعبير بمعنى الاستمرار (لا تزالُ) يدل على مداومة هذه الخيانة وتجددها ، وكذا الفعل (تطّلعُ) الذى يدل بمعناه وتركيبه على الكثرة والاستمرار أيضا .

كما أن بالآيات موسيقى جميلة ، نتجت من حسن تقسيم الجمل ، ثم بهاتها بخاتمة القصيرة السريعة : ﴿ إنَّ اللَّهَ يُحبُّ الْمُحْسنين ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ ولقدْ ذرأْنا لجهنَّم كثيراً مّنَ الْجنّ والإنسِ لهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يفْقهُونَ بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لاَّ يسْمعُونَ بهَا أُوْلَئكَ كَالأَنْعَام بَلْ هُمْ أَضَلُّ أولئك هم الغافلون ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

(كثيرا) كثرة مطلقة هائلة ، كما دل تنكيرها ، وقوله : ﴿ مّنَ الْجنّ والإنس ﴾ تخصيص لهذه الكثرة ؛ حيث إنهما وحدهما المكلفان .

والتنكير فى (قُلُوبٌ) و(أعْيُنٌ) وجمعها جمع قلة دون (عيون) و(آذَانٌ) للدلالة على النوعية والتحقير ، فهذه الحواس من نوع مخالف للقلوب والأعين والآذان المعروفة التى تستجيب للحق ، فالمراد من القلوب : الإدراك والفهم ، وهو إطلاق اسم الحال على المحل فعبر بالقلب عن العقل [(١)] ، أى لهم عقول لا يفقهون بها . والمراد من الأعين : البصيرة والتأمل ، والمراد من السمع : الطاعة والتعقل .. ولو عرفها لانصرف الذهن إلى الحواس المعروفة ..

وقدم القلوب على الأعين والآذان ، لشرفها وعلو قدرها .

﴿ أُوْلَئكَ كَالأَنْعَام بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ أسلوب تأكيد وقصر بالضمير (هُمْ) ونكر (أضَلُّ) لإرادة عدم الحصر فى صفة واحدة .

يقول تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذينَ كَفَرُوا بربّهمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ به الرّيحُ في يَوْمٍ عَاصفٍ لاَّ يَقْدرُونَ ممَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعيدُ ﴾ [إبراهيم : ١٨] .

(١) الإتقان فى علوم القرآن ٣ / ١٢٦ .

﴿ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ...﴾ المشبه به حسى والمشبه عقلى [1] .

المثل مستعار للصفة التى فيها غرابة . . والمعنى مثل أعمال الذين كفروا بربهم . . . [2] شبهت أعمالهم بالرماد الذى يداس بالأقدام ، فهو تشبيه تمثيلى لأن وجه الشبه منتزع من متعدد . . فالتشبيه مع التنكير لتحقير هذه الأعمال . .

وتمحق أعمال الكافرين ، كما تمحق الريح الشديدة الرماد فى : ﴿ يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ فأطلق اليوم ثم وصفه لمزيد من التهويل . وجعل العصف لليوم ، وهو لما فيه ، على سبيل المجاز العقلى لأداء هذا لغرض .

وفى تقديم (مِمَّا كَسَبُوا) على (عَلَىٰ شَيْءٍ) قنوط وحبوط لهم ، وتنكير (شَيْءٍ) فى سياق النفى ، يفيد العموم والشمول ، مما يساعد فى إبراز هذا المعنى .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٣٩ ، ٤٠] .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ﴾ هذا من روائع التشبيه وبدائع التمثيل . . أعمالهم كالسراب المتكاثف فوق صحراء شاسعة، يحسبه الظمآن ماء نميرا ، فإذا جاءه لم يجده شيئا على الإطلاق . .

فالتنكير فى (سَرَابٍ) لبيان الكثرة والتكاثف ، والتنكير فى (قِيعَةٍ) لبيان هول قحالتها ، والتنكير فى (مَاءً) لفخامة صفائه، والتنكير فى (شَيْئًا) للعموم والشمول . . وهذا التدرج الانتقالى للتنكير ودلالته يرسم لوحة فنية

(١) الإتقان فى علوم القرآن ٣ / ١٤٤ .

(٢) الكشاف ٢ / ٥٤٧ .

محسوسة . .

والمقالة بين (لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا) و (وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ) تبين هول المفاجأة وتحسر الكافرين .

ثم تمثيل آخر لأعمالهم بالظلمات المتكاثفة فى البحر اللجى . . إنها ظلمات كثيرة هائلة . . ظلمة البحر الهائل العمق . . ظلمة الأمواج المتراكبة بعضها فوق بعض . . ظلمة السحب القاتمة التى تبعث الرعب . . والتنكير فى كل هذه النكرات تفخيمى تهويلى ؛ ليعكس قتامة هذا المشهد والتكرار فى(مَوْجٌ) و(فَوْقه) و(ظُلُمَاتٌ) لتقرير وتوكيد هذه المعانى ، والإطناب فى قوله تعالى : ﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا ...﴾ توكيد فى إبراز المشهد فى صورة حسية ملموسة .

والطباق بين (ظُلُمَاتٌ) و (نُورًا) للمقابلة بين الكفر والإيمان ، هذه ظلمات الكفر الهائلة ، وجمعها ونكرها ؛ لأن ظلمات الكفر كثيرة ومتشعبة الضلالات، أما نور الله فهو متناهى العظمة ولهذا نكره ، وأفرده لأن طريق الله ومنهجه واحد لا يتبدل ولا يتشعب . .

أما تنكير (نُورٍ) الثانى فهو للتقليل ، أى لا شىء له من النور ، وليس له هداية ما من أحد أصلا [1] .

قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الجاثية : ٧ ـ ١٠] .

(وَيْلٌ) هلاك هائل ، لا يدرك وصفه من شدة هوله ، ولهذا نكره ، وجاز الابتداء بالنكرة لأنها دعاء على كل أفاك أثيم . .

(١) البيضاوى ٦ / ٣٩٠ ، وتفسير أبى السعود ٦ / ١٨٢ .

وفى التركيب اللغوى (أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) مع صيغة المبالغة والتنكير ، تهويل وتفخيم للحدث ، ولفظ (كُلِّ) وتنكيره لعموم الويل لكل أفاك أثيم ، وضم الإفك إلى الإثم ، ليشمل القول والفعل ، فلا تجد أفاكا فى قوله أى كذابا إلا وكان أثيما مذنبا فى فعله .

﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ .

فى هذا وما بعده تفصيل بعد إجمال ؛ لبيان ما يقع منهم من إفك وإثم وفى قوله : ﴿ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ ، تشبيه مرسل ، أى كأنه لم سمع آيات القرآن الكريم [1] .

و(يُصِرُّ) أصله من إصرار الحمار على العانة ، وهو أن ينحى عليها صارا أذنيه [2] .

وأصر على الشيء : أقام عليه ودام [3].

و(مُسْتَكْبِرًا) حال تلزم التنكير الذى يفيد التفخيم والتهويل ، وفى ذكر (مُسْتَكْبِرًا) إطناب لزيادة التقرير والإيضاح . .

﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فأطلق العذاب المنكر ثم وصفه مبالغا لتهويله وتفخيمه وفى قوله : (فبشره) تهكم وسخرية ؛ لأن البشارة فى الأمور السارة ، والتنكير فى (شيئا) يفيد الإطلاق والعموم ، مما يعكس مدى عناد واستهزاء الكافرين مع كل آية . .

وقال : (اتخذها) ولم يقل : (اتخذه) للإشعار بأنه إذا أحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التى أنزلها الله على النبى ﷺ ، خاض فى الاستهزاء بجميع الآيات ، ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه [4] .

---

(١) صفوة التفاسير ٣ / ١٩٠ .
(٢) الكشاف ٤ / ٢٨٦ .
(٣) مختار الصحاح ص ٣٦١ .
(٤) الكشاف ٤ / ٢٨٦ .

وقد تفنن السياق فى وصف العذاب فقال أولا : (بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) لأن سياق الآية قبل ذلك تحدث عن استكبار الكافرين ، وإنكارهم لوعيد الله ، وكأنهم قالوا : لا عذاب ولا آلام ، فوقع لهم ما رفضوه .

ثم قال : (عَذَابٌ مُّهِينٌ) لأنه قال فى وصف المستكبر (تَّخَذَهَا هُزُوًا) ، أى أنه قصد الإهانة والاستهزاء بآيات الله فجاءهم الجزاء من جنس العمل .

ثم قال : (عَذَابٌ عَظِيمٌ) لأنهم اتخذوا من دون الله أولياء وعظموهم فعظم العذاب لعظم الذنب .

الباب الثانى
التنكير وآيات الآخرة

ويشتمل على :

الفصل الأول : التنكير ومشاهد القيامة

الفصل الثانى : التنكير وآيات الجنة

الفصل الثالث : التنكير وآيات النار

الفصل الأول
التنكير ومشاهد القيامة

التنكير ومشاهد القيامة

تتعاون الصور الجمالية فى إبراز مشاهد القيامة ، حتى لكأننا نراها رأى عين ، فهى من أكثر المشاهد - إن لم تكن أكثرها - التى تزخر بالحركة والتجسيم ، وإخراج المعانى فى صور محسوسة ، مما يساعد فى تحقيق الهدف الذى من أجله سيقت هذه المشاهد الحية . .

وكان التنكير أحد الأساليب الجمالية الذى ساهم مع غيره من الفنون الأخرى فى إبراز تلك المشاهد وتقرير هذه المعانى

يقول تعالى ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ . وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة ٤٧ - ٤٩] .

(يَوْمًا) نكره وأطلقه للتفخيم والتهويل أى : يوما لا يدرك كنهه من هوله وفزعه . ثم قيده بالوصف (لَّا تَجْزِي نَفْسٌ) وفى ذلك تفصيل لمزيد من تربية الروع والمهابة .

ومعنى تنكير (نَفْسٌ) أن نفسا من الأنفس لا تجزى عنها شيئا من الأشياء[1] وهو الإقناط الكلى القاطع للمطامع [2] .

فلا يقبل من تلك النفس شفاعة ما ولا يؤخذ منها عدل ما . . على العموم والشمول أيضا . . وبنى الفعل للمجهول للعلم بفاعله وهو الله تعالى ، وجىء بالفعل (يُقْبَلُ) مع (شَفَاعَةٌ) لأنها محل القبول على سبيل

---

(١) المنار ١ / ٣٠٥ .

(٢) البيضاوى ١ / ٩٩ .

الرحمة والرأفة ، وجيء بالفعل (يُؤْخَذُ) مع (عَدْلٌ) لأن ذلك على سبيل الفداء .

وفى حين أنه أتى بالفعل (يُقْبَلُ) مع (عَدْلٌ)، و(تَنفَعُهَا) مع (شَفَاعَةٌ) فى قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة : ١٢٣] .

وهو تلوين فى الخطاب لقطع طريق الأمل عليهم ؛ ولذا كرر التذكير وإعادة التحذير مبالغة فى النصح وللإيذان بأن المقصود من القصة بيان أن نعم الله عليهم أعظم ، وكفرهم بها أقبح [١] .

يقول تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة : ١٦٦ ، ١٦٧] .

(كَرَّةً) تنكير للإفراد يفيد التمنى ، والمعنى : ليت لنا كرة فنتبرأ ، وكرة مصدر كر يكر إذا رجع [٢] .

والتنكير فى (حَسَرَاتٍ) يفيد التهويل والكثرة ، وهى منصوبة على الحال،أى حالهم حسرات ، ويجوز أن يكون النصب على المفعول الثالث ، ويكون يريهم بمعنى يعلمهم ، والمعنى : أنهم يرون أعمالهم وقد انقلبت حسرات عليهم .

وفى هذا تصوير للندامات الشديدة ، والحسرات الكثيرة التى تتردد فى صدورهم كأنهم شرر الجحيم ، وهو تعقيب ممض مؤلم بعد التبرؤ والتعادى والتخاصم بين التابعين والمتبوعين [٣] .

﴿ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ تأكيد لعدم خروجهم بالباء الدالة على ذلك ،

(١) الكشاف ١ / ١٣٦ .

(٢) التبيان فى إعراب القرآن ١ / ٧٤ .

(٣) الظلال ١ / ١٥٤ ، وصفوة التفاسير ١ / ١١٢ .

والتنكير المفيد للعموم فى سياق النفى ، فلا خروج على الإطلاق .

يقول الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا . وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا . وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٧ - ٤٩] .

تتعاون النكرات فى هذا المشهد لإخراجه فى صورة حية تجسم مافيه من هول وفزع فهو (يَوْمَ) أى : واذكر يوم القيامة ، فجرده من فعله ، ومضاه لتربية المهابة والخوف . .

وفى هذا اليوم (تَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً) إنه بروز عجيب غير معهود بما فيه من هول كما دل التنكير ، و(بَارِزَةً) خبر فى الأصل حولها الفعل (تَرَى) إلى المفعول الثانى ؛ لكى يبرز المشهد فى رؤية عين ، فلا سبيل للإنكار بعد أن يرى الإنسان بعينه ؛ ولذلك أتى بالفعل الماضى (وَحَشَرْنَاهُمْ) ليعبر به عن المستقبل لتتبين هيئة الفعل باستحضار صورته ، ليكون السامع كأنه شاهد [1] .

والعموم المستفاد من تنكير (أَحَدًا) يقطع الأمل فى هروب الكافرين . .

وفى هذا المشهد إيقاع سريع وموسيقى قوية نتيجة لحسن التقسيم :

(وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ) . . . (وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً) . . . (وَحَشَرْنَاهُمْ) . . . (فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) وتوسط تلك الجمل المتساوية نغمة قصيرة وسريعة قوية بقوله تعالى : (وَحَشَرْنَاهُمْ) فتأخذ النفس فى فجاءة باغتة .

ثم يكون العرض (صَفًّا) أى مصفوفين أو مصطفين ، وفى التنكير إبراز ما فى الاصطفاف من خشوع وذلة .

(١) البرهان فى علوم القرآن ٣ / ٣٣٧ .

ثم الانتقال من هذه القصة إلى قصة أخرى عن طريق (بَلْ)[1]، والتنكير فى (مَّوْعِدًا) بما فيه من عموم الموعد يوحى بمدى عنادهم وكفرهم باليوم الآخر .

ثم يأتى المشهد بالفعل (تَرَى) مرة أخرى؛ للتأكيد على إبراز هذا المشهد الحى ، فترى المجرمين رؤية عين وهم فى إشفاق هائل عظيم ، كما دل تنكير المفعول (مُشْفِقِينَ) المنقول عن الخبرية .

وبنى الفعل (وُضِعَ) للمجهول ، للعلم بفاعله ، ولتنزيه لفظ الجلالة عن الذكر فى سياق الكلام عن المجرمين ، وفيه تشبيح وإهانة لهم أيضا .

وهذا الكتاب الذى وضع لا يغادر صغيرة ما ، ولا كبيرة ما ، على العموم والشمول ، مما يبعث على حسرتهم ، ووقوع التنكير العمومى بين النفى والاستثناء للتوكيد والحصر .

وفى إسناد الإحصاء إلى الكتاب استعارة جميلة توحى بملازمة هذا الكتاب ومراقبته لهم .

﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ إنه الحضور الفجائى ، غير المعهود بما فيه من تهويل لهم ، كما يوحى تنكير (حَاضِرًا) ، والتعبير بـ (مَا) الموصولة لتحقير عملهم . ﴿ وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ فالعموم المستفاد من تنكير (أَحَدًا) يبرز القاعدة الأساسية للتعامل فى هذا اليوم ، وهى قاعدة العدل المطلق .

يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا . يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا . وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا . يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا . يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾

[طه : ١٠٢-١٠٩]

(٢) التبيان فى إعراب القرآن ٢ / ١٠٤ .

يبدأ هذا المشهد أيضا بالتنكير التهويلى (يَوْمَ) لتربية المهابة . . ثم تقبيح صورة المجرمين، برسم شخصيتهم من الخارج ، عن طريق التنكير التحقيرى (زُرْقًا) .أى ترى فى عيونهم زرقة قبيحة مقززة ، والعرب كانت تستقبح هذا اللون فى العيون ، وخاصة أن أعداءهم الروم كانوا كذلك [1] ، ولكن هذه الزرقة القبيحة من نوع مخالف لما عهدوه فى الدنيا ، وذلك من شدة ما فيه من الأهوال [2] .

ثم يرسم السياق شخصيتهم من الداخل ، تغمرها الحيرة والحسرة، فيدور الحوار والجدال فى مدة لبثهم بالدنيا ، فقال قائل: (إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا) أى عشرة أيام ، والتنكير للقلة ، وكذا تنكير (يَوْمًا) أيضا ، و(إن) نافية بمعنى (ما) ، وسياق النفى والاستثناء يفيد التوكيد ، ويبرز ما هم فيه من تخبط ، والتعبير بالتنكير والتمييز فى قوله تعالى : ﴿ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾ يفيد مدى ضلال وحقارة أحسنهم ، فما بالك بمن دونه ؟!

ثم ينتقل الأسلوب من الخبر إلى الإنشاء (فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا) ، وكلا الأسلوبين للتهويل ، وتربية الروع ، وقوله : (نَسْفًا) أى نسفا هائلا لا مثيل له ، ونكَّرَهُ وأطلقه دون وصف لتذهب النفس فى تصوره كل مذهب ، ففيه دوى النسف ، وسرعة الحركة . .

﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾ أى يذر الأرض قاعا أى مستوية ، و(صفصفا) أى مستوية أيضا ، وهو ترادف للتوكيد والتقرير ، والتنكير لبيان شدة الاستواء ، وفخامة صنعة الصانع وقدرته ـ جل شأنه ـ فى سرعة تحويل الأرض ذات الجبال الشاهقة الكثيرة إلى أرض ملساء شديدة الاستواء .

وبين (عِوَجًا) و(أَمْتًا) طباق لفظى لتقوية المعنى ، والتنكير للعموم

---

(1) الكشاف ٣ / ٨٧ .

(2) مختصر ابن كثير ٢ / ٤٩٣ .

والتقليل أى : لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، أى انخفاضا ولا ارتفاعا فى أى مكان من الأرض ولو كان قليلا . .

وبين قوله : (خَشَعَت) و (هَمْسًا) تناسق معنوى ، والهمس وتنكيره للتقليل وإظهار الخشوع والانكسار وفى إسناد الخشوع إلى الأصوات، استعارة تشخيصية جميلة، تبرز المعنى فى صورة محسوسة، فالأصوات خافتة، والسمع مقصور ومحصور فى الهمس ، كما دل النفى والاستثناء .

يقول تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يوم تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج ١ ، ٢)

يظهر التهويل والتفخيم فى تنكير وإبهام (شيء) ثم وصفه بمزيد من التهويل المنكر (عَظِيمٌ) ، وفى قوله تعالى : ﴿ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ ﴾ مجاز عقلى لمزيد من الروع المؤكد بـ (إِنَّ)

ثم تهويل آخر بقوله : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ بتنكير (يوم) والإضمار فى (ترونها) لتربية المهابة وإيقاظ الذهن . .

وفى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ... ﴾ بعد قوله ﴿ إن زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ ﴾ تفصيل بعد إجمال للتهويل أيضا .

وفى لفظ وتنكير (كُلُّ مُرْضِعَةٍ) إحاطة شمول ، وخص المرضعة والحامل بالذكر لبيان مدى وأثر هول الزلزلة .

و(مُرْضِعَةٍ) جاء على الفعل ، ولو جاء على النسب لقال : مرضع [1] ، لأن (مُرْضِعَةٍ) تعنى حالة وساعة الرضاعة ، هى تنزع ثديها من فم رضيعها فزعا وهولا [2] .

---

(١) التبيان فى إعراب القرآن ٢ / ١٣٩ .

(٢) الكشاف ٣ / ١٤٢ .

وأتى بلفظ (ذَاتِ) مع الحمل ، ولم يأت به مع الرضاعة ، لأن الحمل فترة متواصلة لا انقطاع بينهم ، عكس الرضاعة .

وفى تنكير (سُكَارَى) وتكراره بيان لتهويله وعدم حقيقته .

يقول تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ . وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ . لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ . وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ . أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ . الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ . قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ . قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ . مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ . يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ . وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق : ٢٠ ـ ٣١] .

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ) جملة خبرية للتهويل، و(ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ) على تقدير حذف المضاف للعلم به ، أى : وقت ذلك يوم الوعيد ، والإشارة إلى مصدر نفخ .

(وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ ...) إحاطة وشمول للبر والفاجر [١] ، وفى تنكير (سَائِقٌ وَشَهِيد) إفراد مع تهويل ، وقال : (شَهِيدٌ) ولم يقل : شاهد ؛ لأن الأول أبلغ وأقوى فى الشهادة و « هو الملك الذى يشهد على الأعمال ، أما السائق ها هنا : قرينها من الشياطين ، سمى سائقا لأنه يتبعها » [٢] .

وفى قوله : (لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ ...) التفات من الغيبة إلى المخاطب لتربية الروع عن طريق هذه المفاجأة وفيه حذف ، أى : يقال له .. وفى قوله : (غَفْلَةٍ) بالتنكير دلالة على شدة هذه الغفلة وقباحتها ، وإشارة إلى هول ذلك اليوم بـ (هَٰذَا) لمزيد من التهويل .

(١) البيضاوى ٨ / ٨٩ ، وروح المعانى ٢٦ / ١٨٣ .

(٢) تاويل مشكل القرآن ص ٤٢٢ .

و(حديد) بالتنكير دلالة على حدته ، ومخالفته لمعهود الدنيا ، وفى قوله تعالى : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ ﴾ استعارة بديعية ، جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله ، أو غشاوة غطى به عينيه .

ولما كان الكافر شديد العتو ، هائل الاعتداء والعناد ، جاء التعبير بصيغ المبالغة والتنكير ليدل على ذلك : (عَتِيدٌ) ، (كَفَّارٍ عَنِيدٍ) ، (مَنَّاعٍ) ، (مُعْتَدٍ مُرِيبٍ) لذلك جاءت المقابلة بالعقاب (الْعَذَابِ الشَّدِيدِ) وعرفه لإرادة جمع جنس العذاب كله .

وقابل عظمة الله وجلاله بتحقير وتهوين ما سواه ، فقال : (إِلَٰهًا آخَرَ) على عمومه أيضا ، وفى سياق الآيات وموسيقى قوية لإظهار هول الموقف والحوار الدائر فيه ، وذلك عن طريق توافق فاصلة الدال ، المسبوقة بالكسرة الطويلة ، التى تكاد أن تسحب النفس معها .

وفى قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ...﴾ حذف لمقولة الكافر ، تحقيرا لشأنه ، ولدلالة السياق عليه أيضا ، كأنه قال : ربّ هو أطغانى ، فقال قرينه : ربنا ما أطغيته .

وقد أخليت هذ الجملة عن الواو (قَالَ قَرِينُهُ) لأنها استؤنفت كما تستأنف الجمل الواقعة فى حكاية التقاول ، كما فى حكاية المقاولة بين موسى وفرعون . .

بينما أدخلت على الجملة الأولى (وَقَالَ قَرِينُهُ) لأنها واجبة العطف للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها فى الحصول (١) .

﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ نفى للظلم مؤكدة بعدة توكيدات . . بالضمير المنفصل (أَنَا) دون المتصل (لست) مثلا . . و- (بالباء) التى تنفى أبسط الظلم فكيف بأكثره ، ونفى الجزء نفى للكل . . وبالتنكير المنفى ، ليعم النفى الظلم كله .

(١) الكشاف ٤ / ٣٨٧ .

وعبر بصيغة المبالغة (ظَلَّامٍ) ليكون المعنى : أنه لو عذب من لا يستحق العذاب لكان ظلاما مفرط الظلم ، فنفى ذلك [1] .

ويقابل الحق سبحانه وتعالى بين النار فى قوله : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ وبين الجنة فى قوله : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ ، وهى مقابلة بديعة ، فيها ترهيب وترغيب ، وجاء فى حق النار بـ (مَّزِيدٍ) بالتنكير للدلالة على الكثرة والإطلاق .. أى من زيادة كثيرة كثرة مطلقة .. فضادها بقوله فى حق الجنة : (غَيْرَ بَعِيدٍ) لتقليل المطلق أى ليست بعيدة مطلقا ، ولو بعدا قليلا .

وقال الزمخشرى - رحمه الله : إن سؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذى يقصد به تصوير المعنى فى القلب وتثبيته [2] .

وهذا باطل غير صحيح ، دفعه إليه اعتزاله ، كما دفعه من قبل فى تأول مثل هذه الآيات كقوله تعالى : ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾، وقوله : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ .

والحق أن سؤال جهنم وجوابها حقيقة بالكيفية التى أرادها الله تعالى دون تشبيه أو تعطيل أو تأويل للنصوص ، والله تعالى أعلم .

يقول تعالى :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ . خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ . إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا . وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴾ [الواقعة : ١ - ٦] .

لا (كَاذِبَةٌ) على الإطلاق ، على الإفراد والعموم ،كما يوحى التنكير الواقع فى سياق النفى .. وفى الكلام حذف ، تقديره : ليس لوقعتها نفس كاذبة ، وهو للاختصار أيضا مساعدة للسياق على الإيقاع السريع المتناسق فى

(١) المصدر السابق نفسه .
(٢) الكشاف ٤ / ٣٨٧ .

حسن تقسيم الجمل ، مما يناسب سرعة الواقعة وهولها .

وفى قوله تعالى : ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ مجاز عقلى ، فالفاعل الحقيقى هو الله تعالى ، ونكرهما لبيان هول وشدة الخفض والرفع ، ولمزيد من التهويل والتركيز على الحدث حذف المسند إليه ، والتقدير : هى خافضة وأتى بـ (خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ) دون حرف عطف ، مع ما بينهما من طباق لفظى لبيان السرعة الخاطفة لتقلب وتغير الأحوال ، فيظهر المشهد محسوسا جليا بما فيه من أصوات رعدية ، وحركات عنيفة متلاحقة .

و(رَجًّا) على المصدر المؤكد والتنكير، للتأكيد على هول الحدث وشدته، وليساعد على التضعيف مع اجتماع حرف الراء . .

بينما اجتمع حرف الباء فى (بَسًّا) وهو من الحروف المطبقة مع حرف السين المهموس ، ليوحى ذلك بسهولة وسرعة انطباق الجبال وبسها حتى تراها « فُتِّتَتْ ولُتَّتْ كما يُلَتُّ السويق »(١) ، وفى قوله : (بُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا) استعارة جميلة تساعد فى إظهار هذا المشهد ومعانيه فى قوة .

وفى قوله تعالى : ﴿ مُّنبَثًّا ﴾ بعد ﴿ هَبَاءً ﴾ دون عطف مع تنكيرهما ، مزيد من الإيضاح والتوكيد على هول وشدة الواقعة وأثرها فى أشد وأثقل ما على الأرض ، وهى الجبال ، فكيف بما دونها ؟! وفى هذا كله تفصيل بعد إجمال فى قوله : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ وكثيرا ما يخص الله تعالى الجبال بالذكر مع الأرض عند عرض مشاهد القيامة لهذا الغرض .

فيقول تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ . وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً . فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾

[الحاقة : ١٣ ـ ١٦] .

فالدك أبلغ من الدق(٢) ، وعبر بالمصدر الموصوف المنكر (دَكَّةً وَاحِدَةً)

(١) معجم غريب القرآن ص ١٤ .
(٢) الكشاف ٤ / ٦٠١ .

لبيان هول وقوة هذه الدكة .. وهو نفس المشهد السابق ، ولكن من زاوية أخرى .. وفى هذا المشهد جاء الخبر ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ بعد ذكر بعض أحداث ومشاهد الواقعة ، من نفخ فى الصور ، وحمل الأرض والجبال ودكهما ..

بينما فى المشهد السابق جاء الخبر أولا ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا ... ﴾ ثم تلاه عرض مشاهد الواقعة ..

وهو تلوين فى الخطاب ؛ للأخذ بالنفس ،وتربية المهابة من ذلك اليوم، ولاستعراض مشاهد القيامة من كافة زواياها .

وغير ذلك قد خص الله تبارك وتعالى الجبال بالذكر ، وإن ذكر الأرض أو السماء أو غير ذلك ..

فيقول تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾
[المزمل : ١٤]

فالتنكير مع التنوين فى قوله:(كَثِيبًا مَّهِيلًا) يوحى بمدى الضآلة واللاشىء الذى وصلت إليه الجبال،فهى تتحول إلى ذرات من الرمال ثم تنسف نسفا.

ويقول تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا . وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا . وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ [النبا : ١٨ - ٢٠] .

ولم يقل : وفتحت أبواب السماء ، وقال : ﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ لينصب الفتح على السماء لا على الأبواب ، أى لكى تصبح السماء كلها أبوابا مفتحة ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ [القمر:١٢] كأن كلها عيون تتفجر .

وقوله تعالى : ﴿ سَرَابًا ﴾ كقوله : ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴾ [الواقعة : ٦] وفى ذلك تشبيه جميل للجبال بالسراب فى زواله ، ونكره لبيان سرعة الاختفاء بعد الثبات .

الفصل الثانى

التنكير وآيات الجنة

التنكير وآيات الجنة

إن مشاهد الجنة من مشاهد يوم القيامة ، وآيات القرآن الكريم زاخرة بتلك المشاهد العظيمة التى تتنافس فيها الأساليب البلاغية لإظهار حيويتها وعظمتها .

وكان للتنكير حظ وافر ، وسهم صائب،فى إبراز تلك المعانى وتصويرها ونقلها إلى عالم المحسوسات .

فصور نعيم أهل الجنة وجزاؤهم عند الله تعالى ، وصور طعامهم وشرابهم وإقامتهم ، مستعينا فى ذلك بالعديد من الصور والأساليب البلاغية الأخرى . .

يقول تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥] .

وفى تنكير (جَنَّاتٍ) الكثرة والفخامة . . وقدم الخبر (لَهُمْ) للتخصيص وإثارة الذهن إلى المقدم ،والتشويق إلى المؤخر . . وذكر (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) قبل (جَنَّاتٍ) لبيان أن الإيمان والعمل الصالح هما الطريق الموصل لها . . وأكد الجملة بـ (أَنَّ) وحذف منها الباء لطول الكلام . والتقدير (بأن لهم) ، وفى قوله تعالى : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ بعد ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ تفصيل بعد إجمال لزيادة التوضيح والتقرير .

وثمار ورزق الجنة من نوع عظيم [١] ، مخالف لمعهود الدنيا ؛ ولذلك نكرهما فى قوله تعالى : ﴿ مِن ثَمَرَةٍ ﴾ و (مِن) للتبعيض ، للدلالة على

(١) روح المعانى ١ / ٢٠٣ ، والبيضاوى ١ / ٧٠ ، والكشاف ١ / ٥٢ .

شمول هذ الخامة لكل الثمار .

وقوله تعالى : (كُلَّمَا) مع الجملة الفعلية : (رُزِقُوا) للدلالة على استمرار وتجدد الرزق وازدياد فخامته .

ومن تنكير التفخيم أيضا قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ ليدل على فخامة فى صفتهن ، ولا يدل عليه لفظة (طاهرة) وهى الإشعار بأن (مُّطَهَّرَةٌ) طهرهن الله عز وجل (١) .

وهذا النعيم الذى قال عنه:(وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) ثابت لأهله لا يتغير ، خاص بهم لا يتحول عنهم ، ولهذا عبر بالجملة الاسمية : (وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

بينما يعبر بالحال المفردة (خَالِدِينَ) فى موضع آخر لتلوين الخطاب فيقول جل شأنه : ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾

[آل عمران : ١٥]

وأبهم الخير (بِخَيْرٍ) لتفخيم شأنه ، والتشويق إليه ، وتعليق الأخبار والبيان بما هو خير لطائفة وبما يوهم أن هناك خيرا آخر لآخرين (٢) .

وكذا الحال فى ختام نفس الآية الكريمة فى قوله تعالى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ فالتنوين للتفخيم وليس للتقليل كما قال البعض ، وقوله تعالى :﴿ مِّنَ اللَّهِ ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة له مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة ، أى: رضوان وأىّ رضوان لا يقدر قدره كائن من الله عز وجل (٣) .

وقوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِم ... ﴾ بعد قوله :﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم ...﴾

(١) المنار ١ / ٣٨٠ ، وتفسير أبى السعود ١ / ١٢٨ ، وروح المعانى ١ / ٣٢٠ .
(٢) تفسير أبى السعود ٢ / ١٥ .
(٣) المنار ٣ / ٢٤٨ ، والبيضاوى ٣ / ١٢ ، وروح المعانى ٣ / ١٠١ .

تفصيل بعد إجمال لمزيد من التقرير والتوضيح .. وفى الآية موسيقى قوية تثير الذهن وتلفت الانتباه ، مبعثها حسن تقسيم الجمل : (لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ) .. (جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) .. (خَالِدِينَ فِيهَا) .. (وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ) .. (وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ) .. (وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) .

ويجوز أن يكون (جَنَّاتٌ) مرفوع على خبر مبتدأ محذوف ، أى هو جنات [1] .

يقول الله تعالى : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠] .

فالتنكير فى (أَمْوَاتًا) للجنس ، أى من جنس الأموات ، فلا حاجة للتعريف حتى لا يختل المعنى ، وبين (قُتِلُوا) و(أَمْوَاتًا) جناس معنوى ، ونكر (أَحْيَاءٌ) للدلالة على أنها حياة عظيمة من نوع مخالف لمعهود الدنيا ، وحذف المسند إليه لدلالة الكلام عليه ، وللاهتمام بالخبر ، والتقدير : هم أحياء ، وقوله : (عِندَ رَبِّهِمْ) للدلالة على فخامة هذه الحياة المؤكدة بقوله: ﴿ يُرْزَقُونَ ﴾ .

وعبر بالحال (فَرِحِينَ) ليدل بالتنكير على قوة هذه الفرحة ودوامها ، وقد نفى عنهم كل (خَوْفٌ) على عمومه كما دل تنكيره ، وجمع بين الخوف والحزن ليشمل الماضى والمستقبل ، فالحزن يكون على حدث فى الماضى ، والخوف يكون من شىء متوقع ومرتقب فى المستقبل ؛ ولذلك جمع أيضا بين الاسم (خَوْفٌ) والفعل (يَحْزَنُونَ) .

ومن تنكير التفخيم فى الآية أيضا قوله تعالى : (بِنِعْمَةٍ) ، (فَضْلٍ)

(١) التبيان فى إعراب القرآن ١ / ١٢٨ .

وأفردهما لإرادة الجنس مع التفخيم ، وتوسط شبه الجملة (مِنَ اللَّهِ) بينهما للدلالة على مزيد من التفخيم وتوكيده .

وفى قوله : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُون ﴾ استئناف مكرر للتوكيد ، وفى ذلك إطناب، لمزيد من التقرير والتوضيح .

يقول الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ٩٥ ، ٩٦] .

(دَرَجَةً .. دَرَجَاتٍ) ، بتنكيرهما ، وإفراد الأولى ، وجمع الثانية ، فالتعظيم والتفخيم وارد فيهما ، لكن التكثير فى الثانية (دَرَجَاتٍ) دون الأولى (دَرَجَةً) لوقوع (دَرَجَةً) موقع المرة من التفضيل ، كأنه قيل : فضلهم تفضيلة واحدة ، والتنكير للتفخيم فى سائر الكلمات المنكرة بالآية . .

وقوله تعالى : ﴿ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ﴾ بعد قوله : ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ تفصيل بعد إجمال ، للتوضيح والتقرير .

وعطف (مَغْفِرَةً وَرَحْمَةً) على (دَرَجَاتٍ) عطف للخاص على العام والتكرار فى المجاهدين والقاعدين ، للحث على الجهاد وبيان فضله عند الله .

يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا . لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾

[النساء : ١٢٢ ـ ١٢٤]

هى (جَنَّاتٍ) من الكثرة والفخامة ما لا يدرك حقيقتها أحد ، كما مر مرارا فى تنكيرها والتعبير بالحال النكرة (خَالدينَ) ،وكذا التنوين فى (أَبَدًا) يفيد الدوام والتوكيد ، وبين (خَالدينَ) و(أَبَدًا) جناس معنوى ، وكذا أيضا بين : ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾ و﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾ .

وفى هذا الخطاب تنزيل المخاطب تنزيل المنكر ، ولكى يعارض مواعيد الشيطان الكاذبة وأمانيه الباطلة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه ، أتى بثلاثة توكيدات .

(وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا) مصـدران ، الأول مؤكد لنفسه ، والثانـى مؤكد لغيره ، (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً) توكيد ثالث بليغ [1] .

وآثر التعبير بالتمييز النكرة (قِيلاً) دون : ومن أصدق من قول الله ، مثلا ، لينصرف الصدق إلى الله تعالى انصرافا محضا ، والاستفهام التعجبى الإنكارى يؤكد ذلك والتنكير فى (سُوءًا) للتهويل والتعظيم ؛ لأن صاحبه لا يجد لنفسه وليا ما ، ولا نصيرا ما ، على العموم والشمول ، كما دلت النكرة فى سياق النفى ، ولا يكون ذلك فى شأن من أتى الصغائر .

وبين قوله تعالى : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا ... ﴾ ، وقوله : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ ... ﴾ مقابلة لتوضيح المعنى وتقويته ، وتظهر ما فى الآية من ترغيب وترهيب .

وقوله : ﴿ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى ﴾ جملة اعتراضية بيانية ، والتنكير فيها لعموم الجنس من الذكر والأنثى .

وعرف الصالحات (بأل) الدالة على الجنس ليشمل كل الصالحات ، ثم أدخل عليها (مَن) التبعيضية ، ليأتى كل إنسان منها ما يستطيع .

وعبر بالجملة الاسمية الحالية (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) ليدل على المطلوب من الثبات

---

(١) الكشاف ١ / ٥٦٧ .

على الإيمان والعمل الصالح ؛ ولذلك أشار إليهم بـ (أُولَئِكَ) الدال على بعد المكانة وتعظيمهم .

﴿ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴾ كناية عن عدل الله المطلق، وفى اللفظ وتنكير(نَقِيراً) ما يدل على القلة والحقارة ، مما يثبت هذا العدل المتناهى الذى يتنافى معه أدنى درجات الظلم ، ولو كان مقدار (نَقِيراً) ، والنقير : أى مقدار ما ينقر الطائر بمنقاره ، وهو أيضا النقرة التى فى ظهر النواة [1] .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ . وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ . لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر : ٤٥ ـ ٤٨] .

جملة خبرية مؤكدة بـ (إنَّ) تفيد الإعلام والمدح ، وكأنها جواب لمن سأل عن مصير المتقين ومكانتهم . . ونكر (جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) للتفخيم والكثرة ولذلك قال : (عُيُونٍ) دون (أعين) المفيد لجمع القلة و عطف (عُيُونٍ) على جنات ، من باب عطف الخاص على العام .

وجمع بين السلام والأمن فى قوله تعالى : (بِسَلامٍ آمِنِينَ) ونكرهما ، لتمام النعمة وفخامتها وتقريرها .

وقوله : (مِّنْ غِلٍّ) يعنى اقتلاعه تماما ، فلا يبقى فى صدورهم غل ولو كان قليلا أو حقيرا كما دل تنكيره ، ودخول (مِنْ) عليه ، وكما دلت عملية النزع على ذلك أيضا .

ونتيجة هذا النزع أن أصبحوا (إِخْوَانًا) وهذه الأخوة على سبيل التجدد والاستمرار ؛ لأنها حال بمعنى يتآخون ، فهى لن تكن موجودة من قبل ، فقد منع من ظهورها وجود الغل ، ولذلك كان التعبير بـ (إِخْوَانًا) بما فيه من تنكير تفخيمى أبلغ من التعبير : وهم إخوان ، وهى جملة حالية أيضا .
وكذا القول فى قوله : (مُّتَقَابِلِينَ) أيضا .

(١) مختار الصحاح ص ٦٧٥ .

ومن تمام النعمة أن نفى الله عنهم كل نصب ـ أى شدة التعب [1] ـ مهما قل أو حقر كما دل التنكير والتعبير بـ (لا يَمَسُّهُمْ) دون : لا يصيبهم ، وهذا النفى على سبيل الاستمرار والدوام كما دل التعبير بالجملة الفعلية.

وأدخل الباء على (مُخْرَجِين) ونكره لتوكيد عدم الخروج ، حتى ولو كان لوقت قليل ، وقدم شبه الجملة (مِّنْهَا) للتنبيه والاهتمام ، وكرر الضمير (هُم) بعد ذكره فى (لا يَمَسُّهُمْ) للتوكيد والاختصاص .

يقول تعالى : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا . لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا . تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم : ٦١ ـ ٦٣] .

(مَأْتِيًّا) نكره للتأكيد والمدح، ولتقرير ذلك أدخل ناسخين على بعضهما : إن ـ كان . . فالأولى للتوكيد ، والثانية للتحقق والسرعة . . وكرر الضمير فى (إِنَّهُ) و (وَعْدُهُ) لتوكيد ذلك ، وإثارة الانتباه . وبالجملة ، فإن هذه الجملة الاعتراضية (إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا) تفيد التقرير والتوكيد لهذا الإخبار ، وكأنها رد على من أنكرت نفسه (وَعَدَ الرَّحْمَنُ) .

﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلامًا ﴾ . . تفصيل بعد إجمال . . (لَغْوًا) ما على عمومه وقلته ، كما يفيد التنكير فى سياق النفى ، والتوكيد المستفاد من سياق النفى والاستثناء المنقطع فى قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ سَلامًا ﴾ ونكره لعلو شأنه وارتفاع قدره ، وقدم شبه الجملة (فِيهَا) للتنبيه والاختصاص .

وكذا التقديم فى : (وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا) لقصر هذا الرزق عليهم ، واختصاصهم به ، وأكد ذلك بتكرار الضمير (هم) .

ونكر (بُكْرَةً وَعَشِيًّا) لأنه لا يريد وقتا بعينه ، وإنما المقصود من ذلك ديمومة هذا الرزق ، وعدم انقطاعه ، فلا يكون هناك ليل ولا نهار ، ولكن على التقدير ، كما تقول : أنا عند فلان صباحا ومساء وبكرة وعشيا ، يريد

(١) فقة اللغة ص ٣٤ .

الديمومة ، ولا تقصد الوقتين المعلومين (١). فأراد الله جل وعز أن يعرفنا من حيث نفهم ونعلم أحوال أهل الجنة فى مأكلهم واعتدال أوقات مطامعهم(٢).

ونكر (تَقِيًّا) مع ما فيها من البناء والتركيب ،للتفخيم ، وأتى بـ (كَانَ) لاستمرار هذه التقوى .

وقد سار السياق بالفخامة التى تناسب .. فأشار للجنة بالتعظيم فى قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ ﴾ ، ثم بالإضافة التشريفية التفخيمية فى قوله تعالى : ﴿ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ، وفى قوله سبحانه : (نُورِثُ) استعارة بديعة ، أى نبقى عليه الجنة كما نبقى على الوارث مال المورّث (٣).

يقول تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ . أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ . مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾[محمد : ١٣ ـ ١٥].

كلام فى صورة الإثبات ، ومعنى النفى والإنكار ، فهو على معنى الاستفهام ، كأنه قيل: أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد فى النار؟ وتعريته من حرف الإنكار فيها ، زيادة تصوير لمكابرة من يسوى بين المتمسك بالبيّنة والتابع لهواه (٤) .

وقوله تعالى: ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ ... ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ ... ﴾ تفصيل بعد إجمال .. وجاء التنكير فى هذه التفصيلات :(ماء .. لبن .. خمر ..عسل) للتفخيم والنوعية ، فهى من نوع عظيم مخالف لما عهده

(١) الكشاف ٣ / ٢٨ ، وانظر : مختصر ابن كثير ٢ / ٤٥٩ .
(٢) تأويل مشكل القرآن .
(٣) الكشاف ٣ / ٢٨ .
(٤) الكشاف ٤ / ٣٢١ .

الإنسان فى دنياه ..

وكذا القول فى (أَنْهَارٌ) وكررها لتوكيد هذا النعيم ، وليتلذذ السامع بذلك. ولمزيد من تعظيم هذا النعيم ، وصفه بعد تنكيره .. (مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ) (لَبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ) ... إلخ .

وقدم شبه الجملة (فِيهَا) فى قوله تعالى :﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ ﴾ ،وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ للتنبيه والاهتمام بالمقدم،والتشويق إلى المؤخر ، وتقديم (لَهُمْ) للاختصاص .

ونكر (مَغْفِرَةٌ) لتفخيمها وتكثيرها وهى معطوف على المحذوف أو حذف الخبر ، والتقدير [1] : ولهم مغفرة لدلالة الكلام عليه ، وهذا الحذف للإطلاق ، لكي تذهب النفس فى تصوره كل مذهب ، وفي ذلك مزيد من التشويق .

وقابل الله تعالى ذكر الجنة وتفخيمها ، بذكر النار وتهويل حالها .. وذلك للترغيب والترهيب .. وقال تعالى فى ساكن النار : ﴿ هُوَ خَالِدٌ ﴾ بالجملة الاسمية المقيدة لثبات خلوده ، كما عبر بالجملة الاسمية فى وصف الجنة أيضاً .

ونكر (مَاءً) ثم وصفه بـ (حَمِيمًا) لتهويله ونوعيته ، فهو من نوع هائل مخالف لما تعارف عليه الناس ، ولمزيد من هذا التهويل أتى بالتضعيف وفاء السرعة (فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ)، وفى هذا التعبير مجاز عقلى ، حيث نسب التقطيع إلى الماء ، وهو لله تعالى فى الحقيقة .

ومن تنكير النوعية التفجيمى فى وصف الجنة أيضا :

قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ . فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ . عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ . مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ . يَطُوفُ

(1) التبيان فى إعراب القرآن ٢ / ٢٣١ .

عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ . لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ . وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ . وَحُورٌ عِينٌ . كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ . جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا . إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا . وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ . وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ . وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ . وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ . وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ . إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا . عُرُبًا أَتْرَابًا . لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ . ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ [الواقعة : ١٠ ـ ٤٠] .

فالسرر الموضونة ، أى المرصعة بالدر والياقوت ، من نوع عظيم غير معهود فى الدنيا ، ونكر (وِلْدَانٌ) للتكثير والتخيم ، ونكر (مُّخَلَّدُونَ) للدلالة على ثباتهم على هذه الحالة أى على شكل الولدان ، أو لأنه قصد التورية ، ويكون (مُّخَلَّدُونَ) بمعنى مقرّطون ، والخلدة : القرط (١) .

والآيات الكريمة تزخر بتنكير النوعية التفخيمى ، الذى ما كان يعبر عن وصف الجنة غيره كقوله تعالى : ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ ... ﴾ وكذا أيضا الفاكهة، ولحم الطير ، والسدر المخضود ، أى : شجر النبق المنزوع الشوك، والطلح المنضود ، أى : شجر الموز ، والمنضود : المتركم الثمر(٢) ، والظل الممدود .. إلخ ، وجىء بالوصف مع التنكير لمزيد من التفخيم .

ونلحظ فى هذ الآيات الكريمة موسيقى قوية ، نتجت عن توافق فاصلة النون وعن حسن تقسيم هذ الآيات المفصلة بعد أن كانت مجملة فى قوله تعالى : ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ وفى الآيات أيضا ترتيب بليغ .. حيث بدأت بذكر السابقين مع التكرار (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) للتوكيد والتفخيم والاهتمام، ثم أشار إليهم بالتعظيم (أُوْلَئِكَ) مع التعريف (بأل) العهدية فى قوله تعالى : ﴿ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

---

(١) الكشاف ٤ / ٤٥٩ .

(٢) مختصر ابن كثير ٣ / ٤٣٢ .

وهم (ثُلَّةٌ) من الأولين ، ولكنهم قليل من الآخرين ، لعظيم شأنهم ، والثلة بالضم أى الجماعة من الناس[1] ، ونكر (ثُلَّةٌ) و(قَلِيلٌ) للتفخيم ، وحذف المبتدأ لدلالة الكلام عليه ، والتقدير : هم ثلة ، وهم قليل .

ثم جاء فى المرتبة الثانية : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ وفى هذا التعبير تعجيب للتعظيم والتفخيم .. ولما كانوا أقل شأنا من المقربين ، عبر عنهم بقوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ .

فالسابقون المقربون قليل ـ أى من آخر الأمة ـ ولذلك قال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ ، أما أصحاب اليمين فهم كثرة ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ .

ثم جاء فى المرتبة الثالثة ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ بعد هذه الآيات مباشرة ، وهو تعجيب للتهويل ..

وهذه المراتب الثلاث تفصيل لما أجمل سابقا فى قوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً ﴾ .

ومن تنكير النوعية التفخيمى فى وصف الجنة أيضا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا . عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا . يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا . وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا . إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا . فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا . وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا . مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ٥ ـ ١٣] .

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ ... ﴾كأن الجملة جواب لمن سأل عن حال الأبرار..

---

(١) مختار الصحاح ص ٨٦ .

ومبالغة فى تفخيم الكأس وما تمزج به من كافور ونوعيته المخالفة لمعهود الدنيا قال تعالى: ﴿ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ بهذا الترتيب والتنكير ، ولم يقل : من كأس كافور .

والمفعول به محذوف لدلالة الكلام عليه ، فلا يقال : كأس إلا إذا كان فيها شراب وإلا فهى زجاجة [1] ، والتقدير : يشربون خمرا أو ماء من كأس . . وفى تنكير (عَيْنًا) التفخيم والنوعية أيضا ، وهى بدل من (كَافُورًا) أو منصوبة على الاختصاص[2] ، أو بفعل محذوف تقديره : يشربون أو نحو ذلك وقد فسره ما بعده وذلك لدلالة الكلام عليه ، وللاهتمام بالمفعول .

ومن هذا التنكير أيضا قوله تعالى : (تَفْجِيرًا) وفيه التوكيد بالمصدر الذى أحدث موسيقى قوية لتجانس الحروف . . والمعنى : أنهم يفجرونها حيث شاؤوا إجراء سهلا ، والتنويع لأنه من التفجير ، لأن الفجر : الشق الواسع [3] .

ومن هذا التنكير أيضا (نَضْرَةً وَسُرُورًا) وفيه مقابلة مع قوله تعالى : (يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا) ؛ ليقابل التهويل بالتفخيم ، والجزع بالأمن .

وفى قوله تعالى : (عَبُوسًا) مجاز عقلى ؛ حيث أسند العبوي إلى اليوم وهو لمن فيه من الأشقياء ، ولمزيد من تهويله وصفه ثانية بـ : (قَمْطَرِيرًا) والقمطرير : الشديد العبوس الذى يجمع ما بين عينيه[4]، يقال : يوم قمطرير وقماطر ، والقمطرير والعصيب أشد ما يكون من أيام البلاء[5].

والأبرار فى سبيل اتقاء شر هذا اليوم يطعمون الطعام (عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)والتنكير هنا لإرادة الجنس والعموم ، أى مسكينا من

(١) فقه اللغة ص ١٥ .
(٢) إعراب القرآن ١٠ / ٣١٨ .
(٣) البيضاوى ٨ / ٢٨٨ .
(٤) الكشاف ٤ / ٦٦٩ .
(٥) معجم غريب القرآن ص ١٧٢ .

المساكين . . إلخ .

والضمير فى (حُبِّهِ) عائد على الطعام ، أى ويطعمون الطعام فى حال محبتهم وشهوتهم له . . . وقيل :على حب الله تعالى لدلالة السِّياق عليه ، والأول أظهر [1] .

ويكون الجزاء من الله تعالى : (جَنَّةً وَحَرِيراً) لا يدرك كنههما من الفخامة ، ولذلك نكرهما ، وعطف الحرير على الجنة من باب عطف الخاص على العام .

ولا يرى أهل الجنة فيها (شَمْسًا) ما ، ولا (زَمْهَرِيراً) ما ، كما دلت النكرة على العموم فى سياق النفى . . أى لا يرون فيها حرا ولا بردا مطلقا، وذلك من تمام النعمة . جعلنا الله من أهلها . آمين .

ولأن الجنة فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، نجد المولى عز وجل يصف لنا نعيمها الوارد فى القرآن الكريم بالتنكير،ليفيد ـ والله تعالى أعلم ـ التعظيم والنوعية المخالفة لمعهود الدنيا . . وارجع إلى الآيات التى تتحدث عن نعيم الجنة والتى ذكرناها ـ بفضل من الله ـ فى هذا الفصل ، وغيرها من آيات القرآن ، تجد وصفا ذلك النعيم بالتنكير .

وانظر إلى مزيد من نعيم الجنة فى نفس السورة التى نحن بصددها . . يقول تعالى : ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً . وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَاْ . قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً . وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً . عَيْناً فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً . وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً . وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً . عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ

(١) مختصر ابن كثير ٤ / ٥٨٢ .

جزاءً وكان سعيكم مشكوراً ﴾ [الإنسان ١٤ . ٢٢] .

فجاء الوصف لنعيم الجنة بالتنكير التفخيمي الدال على النوعية المخالفة لما عهده الناس وألفوه . . (دانيةً . فضةٍ . أكواب . قواريراً . كأساً . . عيناً . . ولدانٌ مخلدون . . لؤلؤاً منثوراً . نعيماً وملكاً كبيراً) إلخ .

و(دانيةً) صفة لمحذوف ، تقديره : وجنة دانية ، وقرئ بالرفع على أنه خبر ، والمبتدأ (ظلالُها) [1] . والإطلاق في المفعول المطلق (تذليلاً) دون قيد بوصف أو إضافة يدل على سهولة قطفها في أي وقت . . (قواريراً . قواريرَ من فضةٍ) هناك أكواب لها بياض الفضة وصفاء القوارير ، وهذا على التشبيه . أراد : قوارير كأنها من فضة ، كما تقول : أتانا بشراب من نور ، أي كأنه نور[2] . و(كانتْ قواريراً) من (يكون) في قوله تعالى : ﴿ كُن فيكونُ ﴾ أي : قد تكون قواريرا ، بتكوين الله تفخيما لتلك الخلقة العجيبة الشأن ، الجامعة بين صفتي الجوهرين المتباينين ، ومنه (كان) في قوله تعالى : ﴿ كأسٍ كان مزاجُها كافوراً ﴾ [3] .

وفي قوله تعالى : ﴿ ويُسقَوْنَ فيها كأساً ﴾ مجاز عقلي ، فإنهم يسقون ما في الكأس من شراب ، ويطلق على الخمر (كأساً) مجازا . .

ويقال في (عيناً) ما قيل في الأولى .

وفي قوله تعالى : ﴿ ويطوفُ عليهم ولدانٌ مخلدون ﴾ تورية . . أي : مقرطون ، تجعل في آذانهم الأقراط ، والحلق الذي في الأذن يسمى قرطا وخلدة ، والسامع يتوهم أنه من الخلود [4] . وقيل : على حالة واحدة ، مخلدون عليها لا يتغيرون عنها لا تزيد أعمارهم عن تلك السن[5] . والله تعالى أعلم .

---

(١) التبيان في إعراب القرآن ٢ / ٢٧٦ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ص ٨٠ .

(٣) الكشاف ٤ / ٦٧١ .

(٤) د . عبد القادر حسين ـ فن البديع ـ القاهرة ـ بيروت ـ دار الشروق ـ ط ١ سنة ١٩٨٣م ـ ص ٦٧ .

(٥) مختصر ابن كثير ٣ / ٥٨٣ .

وفى التعبير بـ (لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا) بما فيه من التنكير التفخيمى النوعى ، تصوير بديع كأنه رأى عين للولدان المنتشرين هنا وهناك كأنهم اللؤلؤ فى الحسن والصفاء .

وسيرى أهل الجنة نعيما آخر لا يعرفون قدره غير هذا الذى فُصل لهم .. إنهم يرون : (نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا) ولهذا نكرهما ..

ويلبس أهل الجنة (سُندُسٍ خُضْرٌ) و(إِسْتَبْرَقٌ) أى الحرير ..

ويزينون بـ (أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ) والتنكير للتفخيم ، وللنوعية المخالفة لمعهود الدنيا ، وقد قيل فى موضع آخر : (أَسَاوِرَ مِن ذهب) وذلك إما على المعاقبة ـ أى يلبسون الذهب تارة ، والفضة تارة أخرى ـ وإما على الجمع بينهما ، كما تزاوج نساء الدنيا بين أنواع الحلى وتجمع بينها ، وما أحسن بالمعصم أن يكون به سواران : سوار من ذهب وسوار من فضة [1].

و(شَرَابًا طَهُورًا) أى عظيما ، ليس كشراب الدنيا ، وفيه الدلالة على شدة طهوريته من صيغة المبالغة (طَهُورًا) .

(إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً ...) إجمال بعد تفصيل .. و(هَٰذَا) إشارة إلى ما تقدم من عطاء الله لهم .. (وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا) شكر به سعيكم ، والشكر مجاز [2] .

جعلنا الله من أهل جنته ورضوانه .. آمين .

(١ ، ٢) الكشاف ٤ / ٦٧٤ .

الفصل الثالث

التنكير وآيات النار

التنكير وآيات النار

يلعب التنكير دورا بارزا فى إبراز معنى هذه الآيات الكريمة أيضا ، وإخراجها فى صورة حسية تتراءى أمام الأعين، فنراه يصور حسرة الكافرين ، وندامة الخاسرين ، وتلمظ جهنم وتسعرها ، واحتراق أهلها وعويل ذويها .. يصور طعامهم وشرابهم ويلون ثيابهم .

والتنكير لون بلاغى له ميزته ولمسته فى السياق كغيره من الألوان البلاغية الأخرى ، فهو يبين هول العذاب وشدة الموقف ، ويبين أن هذه النار وهذا الطعام ، وذاك الشراب نكرة (1) ، لا نعرف كنهها من الفظاعة والهول ، فهو ليس طعاما أو شرابا ولكنه فى الحقيقة لهيب مستعر ، وهذا غير معهود أو معروف لنا ..

وهذا كله يحمله السياق القرآنى بما فيه من مختلف صور البلاغة ؛ لنرى فى النهاية لوحة فنية متكاملة تؤدى غرضها على أكمل وجه .

يقول تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً . إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴾ [النساء : ٩ ، ١٠] .

قابل التنكير المنبئ عن الضعف والمذلة فى قوله تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا ﴾ بالتنكير المنبئ عن الفخامة فى قوله تعالى : ﴿ قَوْلاً سَدِيداً ﴾ ، فهذا لتأمين ذاك ، وأفرد (قَوْلاً) لإرادة الجنس ، ووصفه بـ (سَدِيداً) للمزيد من فخامته وقوته المؤكدة بالمصدر (قَوْلاً) .

وفى قوله تعالى : ﴿ مِنْ خَلْفِهِم ﴾ كناية عن الوفاة ، أى بعد وفاتهم ، وجمع بين (الخشية) و(الخوف) ؛ لأن الأولى تعنى الشفقة وهى حالة

وجدانية قلبية ، والخوف يعنى الحذر والتوقع وما يظهر فى الحواس من سلوك وتصرفات ، أى جمع بين القلب والعقل .

ويظهر هول وفظاعة الاعتداء فى تنكير قوله تعالى : ﴿ ظُلْمًا ﴾ أى من أجل الظلم ، على المفعول له .

وقابل هول الظلم بهول العقاب وعظمته الذى يظهر فى تنكير (نَارًا) و(سَعِيرًا) أى نارا هائلة مبهمة الوصف ، لا يعرف غاية شدتها إلا الله تعالى [1] .

وفى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ مجاز ، لإيقاع المسبب موقع السبب ، أى لاستلزام أموال اليتامى إياها [2] .

والتعبير بـ (إِنَّمَا) دون النفى والإثبات نحو : ما يأكلون فى بطونهم إلا نارا ـ وكلاهما للقصر ـ لأن (إِنَّمَا) تجىء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته ، وآكل مال اليتيم ظلما يعلم حقيقة ظلمه .. والآية تنفى أن يكون المأكول غير النار ؛ لأن (إِنَّمَا) تفيد ـ أيضا ـ فى الكلام بعدها إيجاب الفعل لشىء ونفيه عن غيره .

وأما الخبر بالنفى والإثبات فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه[3] . نحو قوله تعالى : ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [المائدة : ٧٣] . هذا مع النظر فى اختلافات السياقات ، والله تعالى أعلم .

يقول تعالى : ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ . يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم: ١٥ ـ ١٧] .

(كل) تعنى بلفظها وتنكيرها العموم ، لتعم الخيبة كل جبار عنيد ..

(١) البيضاوى ٣ / ١١٠ .
(٢) البرهان فى علوم القرآن ٢ / ٢٦٠ .
(٣) انظر : دلائل الإعجاز ص ٢١٦ ، والبرهان فى علوم القرآن ٤ / ٢٣١ .

ونكر (جَبَّارٍ) ووصفه بـ (عَنِيدٍ) بعد أن بالغ فيهما ليدل على هول التجبر وشدة العناد .

وعبر بـ (خاب) للدلالة على عدم نيلهم ما طلبوا ، وهم الذين عاندوا وتجبروا من أجل النصرة على رسل الله .

وفى قوله تعالى: ﴿ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ﴾ إجمال ، وقد فصل فيما بعد .. و(وراء) هنا بمعنى أمام ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [1] .

وتقدم ذكر جهنم إدخال للرعب وإظهار للوعيد .. وقد جاءت الجمل الخبرية فى الآيتين إظهارا لذلك ، وقد استؤنفت سبع مرات عن طريق (الواو) .. وفى تنكير (مَّاءٍ) التهويل والنوعية ، ولمزيد من بيان ذلك وصفه بـ (صَدِيدٍ) فهو ليس ماء ، بل صديد .. والإحاطة والشمول فى تنكير (من كُلِّ مَكَانٍ) تظهر بوضوح أثر ذلك الماء ، وتظهر التكلف فى شرب هذا الماء بقوله تعالى : ﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ عن طريق لفظ الفعل وبنائه ، ودخل (كاد) للمبالغة ، يعنى : ولا يقارب أن يسيغه ، فكيف تكون الإساغة ؟! [2] .

(وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ) جملة خبرية مستأنفة تفظيعا لما يصيبه من الآلام، فمع كل ما سبق لا يموت أبدا .. وهذا التأبيد والإطلاق مستفاد من تنكير (ميت) ودخول الباء لتوكيد ذلك .

ونكر (عَذَابٌ) للتهويل والتعظيم ، وأطلقه ثم قيده بالوصف (غَلِيظٌ) مزيد من بيان ذلك ، وأخره عن (وَمِن وَرَائِهِ) لتربية الروع .

وفى وصف العذاب الغليظ استعارة تهويلية تشبه العذاب بالثوب الخشن الغليظ الذى يغطى صاحبه .

---

(١) انظر : مختصر ابن كثير ٢ / ٢٩٣ .
(٢) الكشاف ٢ / ٥٤٦ .

يقول تعالى : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ . يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ . وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ . كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الحج : ١٩ - ٢٢] .

خصمان فى حكم المعرفة بسبب الإشارة بـ (هَذَانِ) يراد المؤمنون والكافرون ، و(خَصْمَانِ) فى الأصل مصدر ، وقد وصف به ، وأكثر الاستعمال على توحيده ،فمن ثناه وجمعه حمله على الصفات والأسماء .. فكأنه قيل : هذان فوجان أو فريقان مختصمان ، و(اخْتَصَمُوا) إنما جمع حملا على المعنى ، لأن كل خصم فريق فيه أشخاص (١).

(فَالَّذِينَ كَفَرُوا ..) تفصيل من إجمال فى قوله تعالى:﴿هَذَانِ خَصْمَانِ ﴾ .. و(ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ) تصوير بيانى يفيد التهويل وإدخال الفزع بالإضافة إلى تنكير النوعية التهويلى فى الثياب والنار .. فالثياب والنار من نوع هائل غير معهود فى الدنيا .. وتقديم (لَهُم) للتخصيص،وفيه تهكم ، كما فى قوله تعالى أيضا : ﴿ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ ونكر (مَّقَامِعُ) للتهويل والنوعية أيضا ، ثم وصفها بشبه الجملة (مِنْ حَدِيدٍ) لبيان المزيد من التهويل والتفخيم .

ويرسم المشهد بما فيه حركات سريعة وأصوات متلاحقة حال أهل النار ، وما هم عليه من (غَمٍّ) هائل وشديد ولهذا نكره ، وقوله تعالى: ﴿ مِنْ غَمٍّ ﴾ شبه جملة لزيادة تقرير وتوضيح صفة العذاب وأثره فى نفوس أهل النار ، الذى يظهر جليا فى المحاولات المتكررة للخروج والتعبير بأداة الشرط (كُلَّمَا) الدالة على الاستمرار و التكرار ..

وفى قوله تعالى : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ تصوير وتهكم .. وحذف القول تحقيرا لشأنهم ، أى وقيل لهم .

---

(١) انظر : التبيان فى إعراب القرآن ٢ / ١٤١ ، والكشاف ٣ / ١٤٩ .

يقول تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا . إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا . وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا . لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ١١ - ١٤] .

(سَعِيرًا) لا تدرك حقيقة هولها من فظاعتها ، كما ينبئ التنكير والتنوين واللفظ وهى النار الشديدة الاستعار [١] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ من الإعداد والتمكن والعناية بالمعد لمزيد من التهويل . وضع الاسم الظاهر (الساعة) موضع المضمر فلم يقل جل شأنه : وأعتدنا لمن كذب بها ، لتربية الروع والمهابة .

ثم نرى التنكير وقد رسم المشهد بحركاته وأصواته بدقة بالغة .. فها هى السعير يعلو صوتها ويرتفع عند رؤيتها للكافرين من (مَّكَانٍ بَعِيدٍ) وتنكير (مَّكَانٍ) ثم وصفه بـ (بَعِيدٍ) يدل على شدة البعد ونكارته ويبعث على التهويل والفزع لسماعهم (تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا) من هذا البعد ، فكيف إذا ألقوا فيها ؟! فنسأل الله العافية

ونكر (تغيُّظًا وزفيرًا) للدلالة على الشدة والتهويل ، ويتدخل البناء والتركيب بإضافة التاء ، وتشديد الياء فى (تَغَيُّظًا) ليزداد المعنى قوة ، والموقف هولا ، ويبرز المكنون النفسى من الغضب والغيظ للسعير التى شخصتها الآيات الكريمة فى صورة من ترى وتتغيظ وتزفر ، والله تعالى قادر على خلق ذلك فيها ، وقيل : إن ذلك لزبانيتها فنسب إليها على حذف المضاف [٢] .

ثم يمر المشهد فى تلاحق وسرعة ترى أهل النار وقد دفعوا دفعا (أُلْقُوا) على وجوههم فى النار.

فقوله جل شأنه : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا ﴾ ولم يقل سبحانه : فيها ؛ ليعبر عن

(١) تفسير أبى السعود ٤ / ٨٢ .

(٢) الكشاف ٣ / ٢٦٧ .

حالهم من الضيق المكانى والكرب النفسى بـ (من) الدالة على البعضية والجزئية ، بينما (فى) للظرفية .

ثم يوضح ويفصل هذا الضيق أكثر فيقول سبحانه : ﴿ مَكَانًا ضَيِّقًا ﴾ فنكر المكان وأبهمه إبهاما ليدل على الحقارة وشدة الكرب ، ثم وصفه وصفا يزيده ضيقا إلى ضيقه ، وكربا إلى كربه ليشتعل المشهد بالتهويل والروع . .

ثم يخبر الله عنهم إخبارا يدل على حالهم بالحال (مقرنين) ، والحال خبر فى الحقيقة [1] ، ليضيف بذلك انحصارا وضيقا جديدين ، وقد ساهم فى إبرازه أيضا بناء الكلمة وتركيبها . .

و(ثبورا) بالإبهام والإطلاق ليدل على شدته وهول معاناتهم والثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار [2] فهم يدعون على أنفسهم بذلك ، وسبقه بـ (هناك) ليزيد فى بعد وحقارة المكان والمكانة لديهم .

ويكون الرد عليهم : (لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا) أى يقال لهم ذلك ، وحذف القول لتنزيه ساحة القائل عن الذكر فى مثل هذا الموضع ، وفى ذلك المزيد من التحقير والإهانة لأهل النار . .

(وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا) أى لا حد له من الكثرة ، ولا وصف له من الشدة كما ينبئ التنكير والتنوين .

وبذلك يكون التنكير قد ساهم مساهمة فعالة فى رسم هذه اللوحة الفنية ، بما فيها من حركات وأصوات ومعاناة ، وساعد على نقل المعنى فى صورة محسوسة مرئية . .

يقول تعالى : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ . وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

(١) دلائل الإعجاز ١٤٤ .
(٢) ابن كثير ٢ / ٦٢٦ .

ألا إنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ . وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴾ [الشورى : ٤٤ـ٤٦] .

ليس له وليّ من الأولياء ، على العموم والإطلاق ،كما دل تنكيره ومجيئه فى سياق النفى والشرط .. وكان هذا بمثابة المدخل أو التمهيد للدخول فى المشهد المحسوس المرئى،ولذلك عبر بقوله تعالى :﴿وَتَرَى﴾ .. ﴿ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ مرد ما .. وسبيل ما أى مرد وأىّ سبيل دون قيد أو وصف .. ولهذا نكرهما وأدخل (مِّن) على سبيل ولم يصفه ومجيئهما فى سياق الاستفهام يدل على شدة اللهفة لرجوعهم إلى الدنيا ، وهو حسرتهم وضنكهم لما هم فيه .

(خَاشِعِينَ) عبر بالحال المفردة التى تلازم التنكير ، ليجعل الخشوع موصولا بالعرض كأنهما حالة واحدة ، وهذا أبلغ فى التعبير عن الانكسار والذل مما لو قال : وهم خاشعون ؛ لأنه استئناف لخبر جديد [١] .

(طَرْفٍ خَفِيٍّ) نكره ثم وصفه للدلالة على ما هم عليه من حقارة ومهانة وذلة فيبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفى بمسارقة ، كما نرى المصبور ينظر إلى السيف ، وهكذا نظر الناظر إلى المكاره ، لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملأ عينيه منها [٢] .

وهم (فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ) ونكره لتهويله وفخامته ، وأحاطه بـ (فِي) التى تعنى الظرفية ، ووصفه بـ (مُّقِيمٍ) للإقامة مما يزيد من هول العذاب وشدته وقد أكده بـ (إنَّ) وأثار له الانتباه والذهن بـ (ألا) .

ومزيدا من التهويل ، فليس لهم (مِّنْ أَوْلِيَاءَ) على العموم والشمول كما دل تنكيره فى سياق النفى ، ودخول (مِّنْ) للبيان والبعضية ، وجمعه لنفى كل ولى كانوا يعتقدون فيه .. ودخول (كَانَ) فى السياق لتنفى وجود

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٤٤ .

(٢) الكشاف ٤ / ٢٣١ .

الأولياء على التأبيد ، أى ما كان لهم من أولياء ، وما ينبغى أن يكون لهم .

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴾ وذلك مقابلة لقولهم : ﴿ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ .

فليس لهم أى سبيل ، على عمومه وشموله ، ودخول (من) لتوكيد شمول نفى السبيل ، وفى هذا بليغ الرد عليهم .. فهم الذين طلبوا المرد من أى سبيل ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ ، والله تعالى أغلق عليهم كل سبيل (فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ) !!

وهكذا فقد استطاع التنكير أن يساهم فى إخراج هذه اللوحة الفنية بصورها الحية المتحركة ، وأصواتها العالية ، وشخصياتها الذليلة الباكية ..

يقول تعالى : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ . انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ . انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ . لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ . إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ . كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ [المرسلات : ٢٨ ـ ٣٣] .

(وَيْلٌ) أى هلاك هائل ، والهول من تنكيره ولفظه ، وهو دعاء عليهم ولذلك جاز الابتداء بالنكرة (وَيْلٌ) ، ومجىء (يَوْمَئِذٍ) بعد (وَيْلٌ) لمزيد من التهويل والروع ..

ثم ينادى مناد : (انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ) .. أى يقال لهم : انطلقوا وحذف القول تحقيرا لشأنهم ..

وعلى سبيل التبكيت والسخرية لم يصرح بالنار أولا ، وإنما قال سبحانه : ﴿ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ وقدم (بِهِ) على (تُكَذِّبُونَ) للاهتمام وإثارة الانتباه، ثم يفصل بعد ما أجمل .. فيكرر للتفريع والترويع : (انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ) .

وفى تنكير (ظِلٍّ) التهويل والنوعية .. فهو ظل فظيع من نوع مخالف

لما عهد في الدنيا ، وزاد من هوله وشدته الوصف بـ (**ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ**) وهو وصف فيه إبهام وإجمال للترويع والتهويل .. ثم تفصيل وتوشيح لهذا الإجمال وهذه الشعب الثلاث : (**لا ظَلِيلٍ .. وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ .. إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ**) .

فظل بهذه الأوصاف التهويلية ليس ظلا ، وإنما عذاب وجحيم ، وأطلق عليه ظل من باب التهكم بهم ، والتعريض بأن ظلهم غير ظل المؤمنين [1] .

﴿ **إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ . كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ** ﴾ شرر فظيع هائل ليس معهودا ولا معروفا .. لم يشاهدوا مثله قط .. وقد أبهمه ثم وصفه بشبه الجملة (**كَالْقَصْرِ**) ليزيده بهذا التشبيه هولا وفظاعة .. إنه كالقصر في ضخامته وارتفاعه ، وكالجمل في حجمه وضخامته ، فهو تشبيه بعد تشبيه لزيادة الروع والهول .

وبذلك يكون التنكير قد نجح في رسم هذه اللوحة الفنية المتكاملة ، بما فيها من ألوان قاتمة ، وأصوات مرعبة ، وحركات مضطربة ، مما ساعد على استحضار الصورة بحيويتها وإيحاءاتها فتؤدي معناها ، وتحقيق غرضها .

يقول تعالى : ﴿ **إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا . لِلطَّاغِينَ مَآبًا . لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا . لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا . إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا . جَزَاءً وِفَاقًا . إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا . وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا . وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا . فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا** ﴾ [النبأ : ٢١ - ٣٠] .

هذا المشهد جاء وسطا بين مشهد القيامة في قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا** ﴾ وبين مشهد الجنة في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا** ﴾ .. والجنة والنار من مشاهد القيامة ..

وبذلك تكون السورة الكريمة قد عرضت صورة كاملة مرتبة الأجزاء

(١) الكشاف ٤ / ٦٨٠ .

والأحداث .. ونكر (مِرْصَادًا) و(مَآبًا) للتهويل والتفخيم، أى: معدة ومرصدة إرصادًا هائلا لتكون مآبا ومرجعا ومنقلبا شديدا يناسب طغيان الكافرين ..

وجاء ذلك التعبير فى سياق توكيدى رصين ، حيث أكد الجملة أولا بـ (إنَّ) ، ثم عبر عن المستقبل بالفعل الماضى (كَانَتْ) ليدل على التحقق والوقوع ويبعث على استحضار الصورة فى الذهن ..

ثم يأتى تهويل آخر ناتج عن تنكير التكثير فى قوله تعالى:(أَحْقَابًا) والأحقاب الدهور ، ولا يكاد يستعمل الحقب والحقبة إلا حيث يراد تتابع الأزمنة وتواليها [١]،ولهذا جاء التعبير بقوله تعالى:(لابِثِينَ) دون (مقيمين) مثلا ؛ لأن اللبث أقوى فى الإلصاق والخلود ، وهذا يبعث على التهويل والروع .

﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا ﴾ والنكرة فى سياق النفى تعم ، أى : لا يذقون فى جنهم أى برد ، ولا أى شراب .. (إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا) وهذا على سبيل الاستثناء المتقطع ، استثنى من البرد الحميم - وهو الماء الحار - واستثنى من الشراب الغساق بالتشديد والتخفيف وهو البارد المنتن من صديد وعرق أهل النار[٢].. والتنكير فيهما للتهويل والروع .

(جَزَاءً وِفَاقًا) نكر (جَزَاءً) للتهويل ثم وصفه بـ (وِفَاقًا) لإضافة التفخيم وبيان عدالة الجزاء ،و(جزاء) مصدر،أى جوازوا جزاء بذلك [٣]. وحذف الفعل للعلم به ، وتحقيرا لشأن أهل النار ..

وإذا سأل سائل عن سبب هذا العذاب ، كان الجواب : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا . وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴾ أى : حسابا ما ، على عمومه وشموله ولذلك كذبوا : (كِذَّابًا) أى تكذيبا ، وهو مصدر منكر من غير الفعل لبيان

(١) الكشاف ٤ / ٦٨٨ .

(٢) انظر : ابن كثير ٣ / ٥٩٢ ، ومختار الصحاح ص ٤٧٤ .

(٣) التبيان فى إعراب القرآن ٢ / ٢٧٩ .

فظاعته وشدة قبحه ..

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ جملة اعتراضية ، و(كِتَابًا) مصدر مؤكد لـ (أَحْصَيْنَاهُ) ؛ لأن الإحصاء والكتبة من واد واحد ، أو لفعله المقدر ، أو حال بمعنى مكتوبا فى اللوح [1] .. وعلى هذا فتنكير (كِتَابًا) للتفخيم .

وقوله تعالى : (وَكُلَّ شَيْءٍ) منصوب بفعل محذوف للعلم به .. وعموم (كُلَّ) مع تنكيره وإبهام (شَيْءٍ) يبعث على التهويل والروع ، وكيف لا ، وكل شىء مكتوب ومسجل ؟!

ولما كان الكافرون ينكرون عذاب الله جاء التعبير بالنفى والإثبات دون (إنما) فى قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ والنفى بـ (لن) يفيد الأبدية ، وهذا يبعث على الروع ، ولذلك قال قتادة : لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذ الآية : ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ فهم فى مزيد من العذاب أبدا [2] .

وفى قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب ، لقصد توبيخهم وتقريعهم ، والكلام بصيغة الغائب على أنهم ما زالوا فى الدنيا فهو للوعيد ، إذا كان يوم القيامة خوطبوا مباشرة بأن يقال لهم : (فَذُوقُوا) وحذف القول تحقيرا لشأنهم ..

وهذا السياق التهويلى يزيد من تهويل (عَذَابًا) المستفاد من تنكيره وإطلاقه دون وصف .

(١) تفسير أبى السعود ٥ / ٢٢٧ .
(٢) ابن كثير ٣ / ٥٩٣ .



الخاتمة

مما سبق يتضح أهمية مبحث التنكير ودوره البارز فى إظهار المعنى فى قوة وحيوية ، فقد كان التعبير به أبلغ من التعريف فى مواقع كثيرة على نحو ما مرّ سابقا ، ولكل مقام مقال ، وسبحان العليم الخبير . . .

ونستخلص مما سبق ما يأتى :

أولا : قد أتت النكرة فى كثير من السياقات وهى لا تدل على غرض من الأغراض السابقة ، فلا تعظم ولا تحقر ولا تكثر ولا تقلل ولا تعمم . . جاءت نكرة من حيث هى نكرة ، فقد اقتضى المقام ذلك ولا حاجة إلى التعريف ، ومن ثم فلو عرفت ما زاد ذلك فى الدلالة المعنوية شيئا . .

وقد ورد هذا النوع فى آيات القرآن الكريم ورودا كثيرا ، ولما كان ذلك لا يمثل غرضا بلاغيا بالمعنى الحقيقى فقد كانت مثل هذه الكلمات خارج البحث . .

ومن أمثلة ذلك قول تعالى: ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [البقرة:٥١] .

فـ (لَيْلَةً) تمييز ، وهو يلزم التنكير ، وتنكيرها هنا لا يعنى شيئا بلاغيا ، فقد اقتضىْ المقام ذلك .

ومثل ذلك أيضا تنوين العوض . . نحو قوله تعالى : ﴿ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ [ص : ١٤]. أى : عقابى ، ونحو قوله تعالى :﴿ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ١٩] أى: كل واحد . . إلى غير ذلك .

ثانيا : ورد فى القرآن الكريم ألفاظ معرفة فى شكلها الخارجى ، ولكنها فى الحقيقة نكرة فى معناها نحو قوله تعالى : ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ [البقرة : ١٩] .

فالإضافة فى قوله تعالى: ﴿ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ إضافة لفظية لا تفيد تعريفا ، ولذا نصب (حَذَرَ) على العلة ، فهو مفعول لأجله ، الغالب فيه التنكير وجر ما ورد معرفا باللام ، كأنه قال : حذراً للموت .

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ﴾ [النساء : ٩٧]

فانتصب(ظَالِمِي) على الحالية من ضمير المفعول فى قوله تعالى: (تَوَفَّاهُم) وإضافته لفظيه ، فلا تفيده تعريفا ، والأصل : ظالمين أنفسهم [١].

وتعبير الإضافة اللفظية يوحى بأن هذا جانب لفظى فقط غير معنوى ، ومن هنا كان النوع المقابل له يسمى إضافة معنوية .. وهذا الضرب من الإضافة - أى اللفظية - لا يفيد تعريفا ولا تخصيصا ، وهو نكرة ، ويعامل فى الجملة معاملة النكرة [٢] .

ويقول ابن مالك فى الألفية :

والحال إن عرف لفظا فاعتقد   تنكيره معنى كوحدك اجتهد

ومن هذه الإضافة اللفظية أيضا قوله تعالى: ﴿ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ ﴾[المائدة: ١] أى : غير محلين الصيد وقوله تعالى : ﴿ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ [المائدة : ٩٥] أى : بالغا الكعبة .. وقوله تعالى: ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الحج : ٩] أى: ثانيا عطفه .. إلى غير ذلك ..

ومما ورد معرفا (بأل) وهو فى الحقيقة المعنوية قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾ [النساء : ٩٨] فاللام للجنس ، وليست للتعريف لأن المعنى العام مبهم أى : كل المستضعفين .

ومن ناحية أخرى قد تأتى ألفاظ نكرة فى ظاهرها ، ولكنها فى

---

(١) انظر : المثالية فى روح المعانى ٥ / ١٢٥ ، وتفسير أبى السعود ٢ / ٢٢٢ .

(٢) النحو والدلالة ، مدخل لدراسة المعنى النحوى الدلالى ص ١٥٠ .

الحقيقة معرفة ، لأنها تحمل معنى التعريف ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾

[آل عمران : ٧]

(أُخَرُ) جمع أخرى غير منصرف ؛ لأنه معدول عن الآخر ، ولا يلزم معرفته ، لأنه فى معنى المعرف [١] .

ومثل ذلك أيضا كلمة : (أَوَّلَ) فمدلولها لا إبهام فيه ولا شيوع مع أن الكلمة نكرة ، ولا تستعمل فيه إلا نكرة ، محاكاة للأساليب الفصيحة الواردة ، وتجرى عليها أحكام النكرة كأن موصوفها نكرة [٢]. وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [التوبة : ١٣] .

ومن الكلمات النكرة فى لفظها لا فى معناها قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ ﴾ [يونس : ٤٥] . فالمراد به يوم القيامة ، وهو يوم معين ، لأنه يجوز أن يكون يوم بمعنى وقت ، والمعنى : وقت حشرهم يشبهون فيه من لم يلبث غير ساعة من نهار [٣].

ثالثا: لقد لعب التنكير دورا بارزا فى إظهار المعنى من خلال الآيات المكية أكثر منه فى الآيات المدنية ، وكأن ذلك بمثابة الأسلوب الأدبى ، والأسلوب العلمى إن صح التعبير . .

فقد كانت الآيات المكية تمثل الأسلوب الأدبى بما لها من طابع الحديث عن العقيدة وترسيخها فى القلوب، والحديث عن الجنة وأهلها والنار وأهلها، وما تحتاجه هذه المعانى من أساليب فنية ، وتراكيب جمالية ، وقد أدى التنكير دورا بلاغيا بارزا فى هذ الآيات ، على نحو ما مرّ فى استعراض هذه الآيات .

---

(١) البيضاوى ٣ / ٦ .

(٢) د . عباس حسن ـ النحو الوافى ـ القاهرة ـ دار المعارف ط (٨) ، ١ / ٢١٥ .

(٣) البيضاوى ٥ / ٣٣ .

أما الآيات المدنية فكانت تمثل الأسلوب العلمى ، بما لها من طابع الحديث عن الأحكام والتشريعات ، وما يتطلب ذلك من البعد عن التصوير والتلوين ، واستخدام الأسلوب القوى المباشر ، ومن ثم تقلص دور التنكير شيئا ما فى الآيات المدنية عن دوره فى الآيات المكية . .

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء : ٣]

والآية الكريمة من سورة النساء ، وهى مدنية ، وما ورد فيها من تنكير ليس له غرض بلاغى ، وإنما هو لاقتضاء المقام .

وبالطبع فليست هذه قاعدة ، فقد وردت آيات كثيرة فى سور مدنية تحمل دلالات مختلفة للتنكير ، والعكس صحيح أيضا . .

رابعا : يمكن أن يدل التنكير على أكثر من غرض فى موضع واحد أحيانا ، وذلك لدلالة سياق المعنى . .

فمثلا قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ ﴾ [البقرة : ٢٥] فتنكير (جَنَّاتٍ) دل على تعظيمها وكثرتها فى نفس الوقت ، لأن المعنى يحتمل ذلك . . أيضا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ [آل عمران : ١١٦] فيمكن اعتبار تنكير (شَيْئًا) للعموم والشمول ، أى : شيئا من الأشياء . . ويمكن اعتبار التنكير للتقليل ، أى أن أموالهم وأولادهم لن تغنى عنهم شيئا ما ولو قليل ، وكلاهما يوافق المعنى . والله تعالى أعلم .

ونحو ذلك اشتراك النوعية مع التعظيم والتحقير والتقليل والتكثير فى بعض الأحيان ، واشتراك التحقير مع التقليل أحيانا ، كما سبق ذكر ذلك فى عرض الآيات فى أبوابها السابقة .

ولعل ما أدى إلى ذلك هو تداخل سياقات التنكير وتشابكها للخروج بمعنى جمالى رائق ينفذ إلى الحس ويأخذ باللب .

وفى عرض الدلالات المختلفة للتنكير ، وجدنا تشابهًا كثيرا بين دلالات التنكير فى بعض الآيات . . . مثلا تنكير (آيات) ورد فى مواضع كثيرة للتنكير والتعظيم . . وكذا تنكير (رسل) أيضا ، وأيضا عموم النكرة فى سياق النفى ، وما شابه مختلف هذه الدلالات . . لذا فقد رأيت تخطى هذا المتشابه . .

وبعد هذا الجهد المتواضع فى هذا الكتاب العظيم أقول : إن أصبت فمن الله ، وإن أخطأت فمن نفسى ، وما توفيقى إلا بالله .

والله تعالى أسأل العفو والقبول والسداد وأن يجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

** القرآن الكريم .

١ ـ ابن الأثير ـ المثل السائر ـ تحقيق : د . أحمد الحوفى ود . بدوى طبانة ـ القاهرة ـ دار نهضة مصر ـ ط١ . بدون تاريخ .

٢ ـ د . أحمد أحمد بدوى ـ من بلاغة القرآن ـ القاهرة ـ دار نهضة مصر ـ بدون تاريخ .

٣ ـ د . أحمد درويش ـ دارسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث ـ القاهرة ـ مكتبة الزهراء ـ بدون تاريخ .

٤ ـ أحمد المراغى ومحمد سالم ـ تهذيب التوضيح ـ القاهرة ـ مطبعة السعادة ـ ط٢ ـ سنة ١٩٢١م .

٥ ـ ابن أبى الإصبع ـ بديع القرآن ـ تحقيق : د . حفنى شرف ـ القاهرة ـ نهضة مصر ـ ط٢ ـ بدون تاريخ .

٦ ـ الألوسى ـ روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ـ بيروت ـ دار إحياء التراث العربى ـ ط٤ ـ سنة ١٩٨٥م .

٧ ـ الباقلانى ـ إعجاز القرآن ـ القاهرة ـ مطبعة الحلبى ـ ط١ ـ سنة ١٩٧٨م .

٨ ـ أبو بكر الرازى ـ مختار الصحاح ـ القاهرة ـ المطبعة الأميرية ـ ط٧ ـ سنة ١٩٥٣م .

٩ ـ البيضاوى ـ تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب الخفاجى ـ تركيا ـ ديار بكر محمد ازدهير ـ المكتبة الإسلامية ـ بدون تاريخ .

١٠ ـ الثعالبى ـ فقه اللغة وسر العربية ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ بدون تاريخ .

١١ ـ ابن رشيق ـ العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده ـ تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ـ بيروت ـ دار الجيل ـ ط٥ ـ سنة ١٩٨١م .

١٢ ـ الزركشى ـ البرهان فى علوم القرآن ـ تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ـ القاهرة ـ مكتبة دار التراث ـ بدون تاريخ .

١٣ ـ الزمخشرى ـ الكشاف ـ القاهرة ـ دار الريان للتراث ـ ط٣ ـ سنة ١٩٨٧م .

١٤ ـ السكاكى ـ مفتاح العلوم ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ بدون تاريخ .

١٥ ـ أبو السعود ـ تفسير أبى السعود ـ بيروت ـ دار إحياء التراث العربى ـ بدون تاريخ .

١٦ ـ سيبويه ـ الكتاب ـ تحقيق وشرح : عبد السلام هارون ـ القاهرة ـ دار القلم ـ سنة ١٩٦٦م .

١٧ ـ سيد قطب ـ فى ظلال القرآن ـ بيروت ـ القاهرة ـ دار الشروق ـ ط١٣ـ سنة ١٩٨٧م .

١٨ ـ السيوطى ـ الإتقان فى علوم القرآن ـ تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٥م .

١٩ ـ د. شوقى ضيف ـ البلاغة تطور وتاريخ ـ القاهرة ـ دار المعارف ـ ط٤ ـ بدون تاريخ .

٢٠ ـ الطبرى ـ جامع البيان فى تفسير القرآن ـ بيروت ـ دار المعرفة ـ بدون تاريخ .

٢١ ـ د . عباس حسن ـ النحو الوافى ـ القاهرة ـ دار المعارف ـ ط٨ ـ بدون تاريخ .

٢٢ ـ د. عبد القادر حسين ـ فن البديع ـ القاهرة ـ بيروت ـ دار الشروق ـ ط١ ـ سنة ١٩٨٣م .

٢٣ ـ د. عبد القادر حسين ـ أثر النحاة فى البحث البلاغى ـ القاهرة ـ دار نهضة مصر ـ بدون تاريخ .

٢٤ ـ د. عبد القادر حسين ـ المختصر فى تاريخ البلاغة ـ بيروت ـ مصر ـ دار الشروق ـ ط١ ـ سنة ١٩٨٢م .

٢٥ ـ عبد القاهر الجرجانى ـ دلائل الإعجاز ـ تصحيح : السيد رشيد رضا ـ القاهرة ـ مطبعة محمد على صبيح ـ ط٦ ـ سنة ١٩٦٠م .

٢٦ ـ عبد الكريم الخطيب ـ إعجاز القرآن ـ القاهرة ـ دار الفكر العربى ـ ط١ ـ سنة ١٩٦٤م .

٢٧ ـ عبد المتعال الصعيدى ـ بغية الإيضاح ـ القاهرة ـ المطبعة النموذجية ـ ط٤ ـ سنة ١٩٥٢م .

٢٨ ـ العكبرى ـ التبيان فى إعراب القرآن ـ القاهرة ـ المكتبة التوفيقية ـ ط١ ـ سنة ١٩٧٩م .

٢٩ ـ الفراء ـ معانى القرآن ـ تحقيق : أحمد يوسف نجاتى ومحمد على النجار ـ القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ط٢ ـ سنة ١٩٨٠م .

٣٠ ـ ابن قتيبة ـ تأويل مشكل القرآن ـ شرح السيد أحمد صقر ـ القاهرة ـ دار التراث ـ ط٢ ـ سنة ١٩٧٣م .

٣١ ـ ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ اختصار وتحقيق : محمد على الصابونى ـ بيروت ـ دار القرآن الكريم ـ ط٧ ـ سنة ١٩٨١م .

٣٢ ـ د . محمد أبو موسى ـ البلاغة القرآنية فى تفسير الكشاف ـ القاهرة ـ دار الفكر العربى ـ بدون تاريخ .

٣٣ ـ د . محمد حماسة عبد اللطيف ـ النحو والدلالة ، مدخل لدراسة المعنى النحوى الدلالى ـ القاهرة ـ مطبعة المدينة ـ ط١ ـ سنة ١٩٨٣م.

٣٤ ـ محمد رشيد رضا ـ تفسير المنار ـ مصر ـ دار المنار ـ ط٤ ـ سنة١٩٥٤م.

٣٥ - د . محمد عبد المطلب - البلاغة والأسلوبية - القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - سنة ١٩٨٤م .

٣٦ - محمد على الصابونى - صفوة التفاسير - بيروت - دار القلم - ط٥ - سنة ١٩٨٦م .

٣٧ - محمد فؤاد عبد الباقى - معجم غريب القرآن - القاهرة - دار إحياء الكتب العربية - بدون تاريخ .

٣٨ - محيى الدين الدرويش - إعراب القرآن وبيانه - اليمامة ودار ابن كثير سنة ١٩٨٨م .

٣٩ - ياقوت الحموى - معجم الأدباء - القاهرة - مطبعة المأمون - بدون تاريخ.

مراجع مترجمة إلى العربية :

٤٠ - جان برتليمى - بحث فى علم الجمال - ترجمة : أنور عبد العزيز - القاهرة - دار نهضة مصر - سنة ١٩٧٠م .

٤١ - دافيد كريستل - التعريف بعلم اللغة - ترجمة : د.حلمى خليل - الإسكندرية - الهيئة المصرية العامة للكتاب - سنة ١٩٧٩م .

٤٢ - ستيفن أولمان - دور الكلمة فى اللغة - ترجمة :د.كمال بشر - القاهرة - مكتبة الشباب - سنة ١٩٧٥م .

فهرست الموضوعات

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
تمهيد	١٣
الباب الأول	
التنكير وآيات الحياة الدنيا	
الفصل الأول : التنكير وآيات العقيدة	٢٩
الفصل الثانى : التنكير وآيات المؤمنين	٥٧
الفصل الثالث : التنكير وآيات الكافرين	٧٧
الباب الثانى	
التنكير وآيات الحياة الآخرة	
الفصل الأول : التنكير ومشاهد القيامة	١٠١
الفصل الثانى : التنكير وآيات الجنة	١٢٠
الفصل الثالث : التنكير وآيات النار	١٣٣
خاتمة	١٤٧
المصادر والمراجع	١٥٥
الفهرس	١٦١

رقم الإيداع

٢٠٠٠ / ١٥٨٦٣